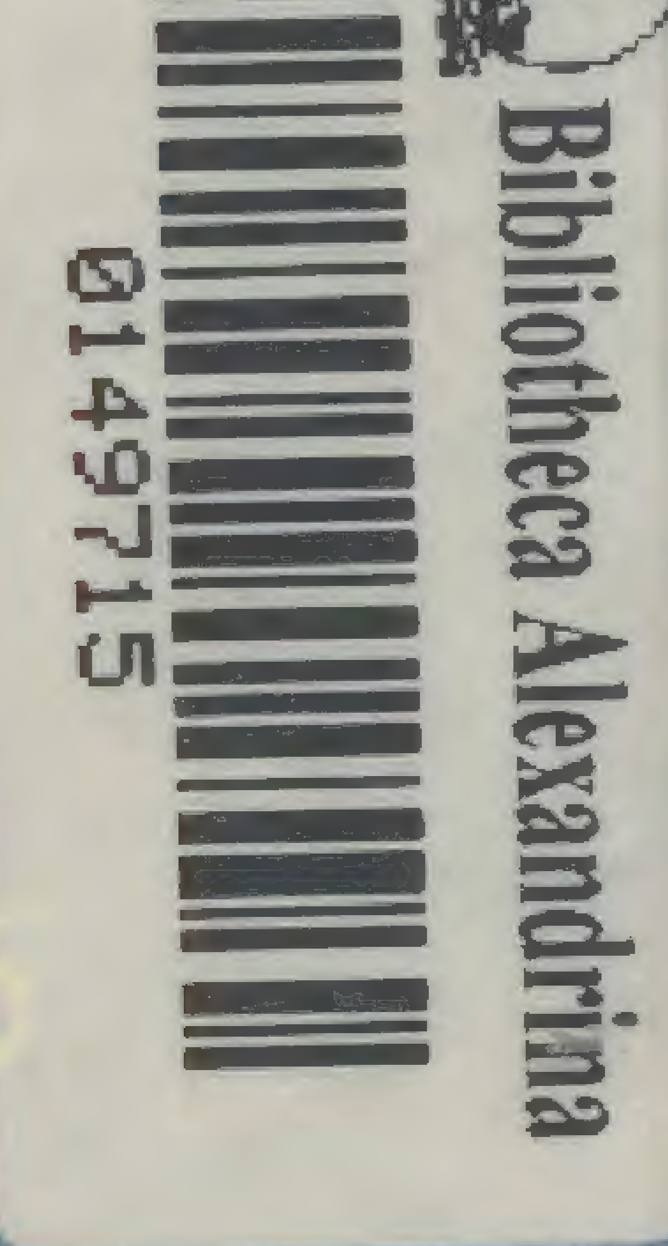
بيار روفايل

وحدي مع الليل



دار الجيل
بيروت

وحدي مع الليل

بيار روفايل

وحدي مع الليل

دار الجيل
بيروت

الطبعـة الرابعة

١٩٩٠

مقدمة

انها قصة المجد الذي تشيده الدموع وتبنيه الآلام ،
قصة التضحية ، والبذل ، والعطاء

فما هناك مجد ، إلا وكان وراءه سيل من الدموع ،
وما هناك عظمة ، الا وكان وراءهـا تضحية وبـذل وعطاء ..

هذه هي الحياة .. تأخذ منا أكثر ممـا تعطينا ،
وتنتزع من افئدتنا وأرواحنا لتهبنا القليل القليـل من الشهرة والعظمة والمجد

المجد ؟..

انه مهزلة المهازل .. دمية نلهو بها ، وتصرفنـا عن حقيقة وجودنا ، فما هناك من مجد على هذه الأرض ، إلا مجد أرواحنا الصافية ، وضمائرنا الحية ، وقلوبنا الطاهرة

مجـد الجسد ، مجد ترابي ، يفنى مع الجسد ، مـع التراب .

ومجد الروح ، مجد روحي ، إنه المجد الخالد

وهذه القصة ، هي قصة المجد الترابي ، وهي قصة المجد الروحي

إنها قصة الوحدة الصماء ، والليل الساكن الهادىء البهيم ..

انها قصة وحدي مع الليل ..



الفصل الاول

تلألأت الأنوار ، وسطعت في دار نجيب سلوم في القرية الصغيرة الوادعة الهانئة المطمئنة ، الخضراء الجاثمة في سفح واد ظليل تحت أقدام أرز الرب في شمال لبنان !

وتعالى قرع الدف والدربكة ، ممتزجاً بـأنين الناي ، ورنات العود وآهات الزجالين و « أوفهم » !

وارتدت دار نجيب سلوم تلك الليلة حلة الفرحة الطلقة السمحاء ، وقد اجتمع فيها ابناء تلك القرية ليشاركوا رب الدار فرحته وبهجته وهناءه !

ونجيب سلوم كان يتربع تلك الليلة على قمة السعادة والهناء ، فالمحروس ابنه « عصام » فاز بشهادة الفلسفة ، وهي شهادة لا ينعم بحملها شاب في تلك القرية .

وجميع شبان القرية تلك،فلاحون مزارعون والسعيد السعيد منهم من يحسن القراءة ويلمّ بالكتابة ،

فلا بأس إذن إن فرح أبناء تلك القرية بالشهادة العالية التي حملها اليهم عصام سلوم .

والتفّ أبناء القرية حول « الفيلسوف الشاب » يمطرونه بوابل من كلمات التهاني .

وراح الزجالون يتبارون في وصف محاسن عصام سلوم حامل الفلسفة ، الذكي ، الشهم النبيل الكريم .

والزجل فى لبنان ينتشر ويزدهر وينمو على افترار ، في كل قرية من قرى الجبل الأخضر الأنوف .

والقرويون اللبنانيون موهوبون ، يرتجلون الشعر الزجلي ارتجالاً ، ويتبارون في ارتجاله عند كل مناسبة ، وفي كل حـــدث . في المآتم ، وفي الأعراس وفي حفلات الأنس والسهر ، والمآدب .

وفي تلك الليلة المظرة ، الفواحة العبير وجد الزجالون فرصة سانحة لهم في تفجير مواهبهم ، فاغتنموها ، واطلقوا لجنية الشعر على ألسنتهم العنان .

ومضت « أم عصام » في نشر سخائها على الزائرين المهنئين .

وانطلقت بناتها الثلاث ، شقيقات عصام ، حليمة ، وكريمة ، ونسيمة ، يساعدن والدتهن في تقديم الحلوى والاثمار والشراب والطعام للضيوف المهنئين .

وجلس « أبو عصام » يفتل شاربيه ، وينفث دخـان نارجيلته بكبرياء ، واعتداد واعتزاز .

ومن حق أبي عصام الاعتزاز والاعتداد ، والمحروس عصام رفع له الرأس عالياً بالشهادة العصماء التي فاز بها .

أما عصام فقد جلس قرب والده يدخن لفافة قدمها له والده بنفسه هذه المرة ، وهي المرة الأولى التي يسمح فيها أبو عصام لعصام بالتدخين أمامه .

وعمت الفرحة أرجاء الدار ، وطفت الابتسامـات على الشفاه ، وقد طاب لتلك الشفاه الابتسام في حفلة تكريم عصام ابن ابي عصام .

ولم يتفرق شمل الساهرين إلا والليـل مشرف على الانقضاء ، وأنوار الفجر البعيد تحاول الانتصار على مواكب ظلام الليل المدلهم السواد .

وخفت الأنوار في دار نجيب سلوم العامرة ، وآوى أفراد الأسرة إلى أسرتهم والفرحة الطلقة تغمر قلوبهم.. واستسلموا للرقاد .. الكل استسلم للرقاد إلا أبا عصام نجيب سلوم وحدة ظل ساهراً في سريرة يفكر ، وقد نأى سلطان الكرى عن مقلتيه .

وراح نجيب سلوم يفكر ، وهو مستلق في سريره . وطافت في رأسه الرؤى ، والأحلام ، والأفكار : غداً سيصبح المحروس عصام سيد القرية ، فالشهادة العالية التي ينعم بحملها تؤهله للسيادة ، سيشخص اليه أبناء القرية كلما وقعوا في معضلة ليحلها لهم !

وكلما وردت رسالة من المهجر القاصي البعيد إلى أم

عجوز ، ستحمل الأم الرسالة إلى عصام ليفك رموزها ، ويطلعها على أخبار الابن الممعن في النوى والبعاد .

وبنات القرية سيحلمن بالشاب حامل الشهادة الرفيعة المقام ! كل فتاة من فتيات تلك القرية ستحلم بأن تكون عروس الفيلسوف عصـــام سلوم .. وعروس الفيلسوف ستصبح فيلسوفة . أليست الفلسفة لقباً .. فلماذا تكون عروس « الشيخ » « شيخة » وعروس الأمير أميرة ، ولا تكون عروس الفيلسوف فيلسوفة ؟

ولمعت الابتسامة على شفتي نجيب سلوم وهذه الأفكار الرائعة الفاتنة تطوف في رأسه .

وجنحت به الأفكار إلى بعيد ... إلى « المخترة » فأبو عصام رجل طموح ، بعيد المطامع ، لا يكتفي بالقليل ، ولا يقف طموحه عند حد .

هو يريد أن يصبح يوماً والد المختار .

سيكون عصام يوماً مختار القرية ، ممثل الدولة في تلك القرية .

وسيكون لكلمته شأن كبير يوم يتربع الفيلسوف عصام على سدة المخترة ..

ويومذاك يحق لأبي عصام أن يفخر وأن يتباهى وأن يرفع الرأس تيهاً واعجاباً واعتداداً وفخراً .

واستغرق نجيب سلوم في أحلامه المخضلة الجناح .

وحاول الرقاد ، الا انه لم يستطع إلى الرقاد سبيلا ،

فالفرحة الكبرى أبعدت النوم عن عينيه .

وبزغ الصباح ناشراً وشاحه الأبيض الجميل على القرية الخضراء ، وأبو عصام ما زال مستلقياً في سريرة يداعب افكاره الحلوة ، ويتيه في عالم الأحلام .

وبدأ الفلاحون يخرجون من منازلهم إلى حقولهم .

وانطلق الرعاة بقطعانهم إلى الأحراج .

واستفاقت القرية الصغيرة من غفوتهـا فهب أبو عصام من سريره ليرتدي ثياب العمل على عجل ، فالحقل بانتظاره والكرم بحاجة إلى ساعده ، والبستان في شوق رحيب إلى معوله وفأسه .

وتحاشى نجيب سلوم إيقاظ أهل الدار .. فهم بحاجة إلى النوم بعد تلك السهرة العامرة التي امتدت إلى مطلع الفجر البعيد .

وتسلل من الدار وشخص إلى الحقل حاملاً الفـــأس والمعول ، ونسي أن يحمل معه زاده .

وكان من عادة أم عصام أن تهيء له الزاد كل صباح . أما هذا الصباح فأم عصام ما زالت تستغرق في النوم . لا بأس ، عندما يدهمه الجوع سيعود إلى الدار .

وراح يعمل في حقله الصغير على فرحة ، وسعـــادة وحبور . إنه اليوم غيره بالأمس ، اليوم أصبح نجيب سلوم والد الفيلسوف ، وغداً سيصبح والد المختار .

ومن يعلم ماذا قد يصبح نجيب سلوم بعد غد ؟ قـد

يصبح والد « الشاويش » وربما أصبح والد « الباشاويش » .

وعادت الأحلام العذاب تغمر رأسه ، وهو مندفع إلى العمل بجد وكد ونشاط .

وإذا بأم عصام تطل عليه حاملة له الزاد ، والعتب يطل من عينيها الغارقتين فوق وجنتيها تحت ثقل السنين .

ووثبت أم عصام إلى أبي عصام تدفع اليه الطعام وتتمتم بعتب ولوم : أهكذا تخرج من الدار يا أبا عصام قبل أن استيقظ من نومي وأهيء لك زادك ؟

وتمتم أبو عصام وهو ماض في تجريح الأرض بمعوله : لا بأس يا أم عصام فقد تحاشيت ايقاظك وأنت متعبة مرهقة بعد سهرة أمس .

فجلست أم عصام فوق صخرة صغيرة وهمست : كل تعب وإرهاق يهون لدي في سبيل عصام ، فليقبر أمه كان ليلة أمس زينة شبان القرية .

فتوقف نجيب سلوم عن العمل ، وألقى بالمعول من يده وجلس قرب زوجته . فالحديث عن المحروس عصام أشهى لديه من العمل . هو سيتابع العمل بعد قليل ، ولكنه لن يستطيع التحدث عن عصام بعد قليل ، بعد أن تعود أم عصام إلى الدار .

وتمتم : فليحرسه الله ، وليبعد عنه أولاد الحرام !

فتمتمت : أمين يا رب !

قال أبو عصام : عصام سيحتل مركزاً مرموقاً في

القرية . سيرتقي أعلى منصب بين أبناء قريتنا يا أم عصام .

فلمعت الدهشة في عيني زوجة نجيب سلوم . وهمست بتساؤل واستفهام : أعلى منصب ؟ وما هو هذا المنصب الرفيع الذي سيتبوأه عصام ؟

فهمس : سيصبح مختاراً ، ستصبحين أم المختار يا ملعونة .

فازدادت الدهشة ضياء في عينيها وتمتمت باستغراب : أم المختار ؟. أنا سأصبح أم المختار ؟

قال مؤكداً : أجل .. وأنا سأصبح والد المختار .

فعادت إلى الهمس : مستحيل . وهل يمكن أن يصبح ابننا مختاراً بهذه السرعة .

قال : ليس عند الله أمر عسير يا أم عصام .

قالت : ولكن هل يجوز أن يكون المختار شاباً ؟ ان مختارنا أبا درويش في الستين من عمره ، والمختار السابق ، رحمه الله ، كان في السبعين ، فكيف يمكن أن يتسلم عصام المخترة ، وهو لم يتجاوز العشرين ؟

فابتسم قائلاً في سره : يا لها من امرأة ساذجة . يخيل اليها ان للعمر شأناً في منصب المخترة .

وساءتها ابتسامته . فكأنه يتهكم عليها ، وأم عصام لا ترضى بأن تكون عرضة للتهكم والهزء . قالت : ما بالك تبتسم ابتسامتك الخبيثة يا أبا عصام . أتراني مخطئة في

ما أقول ؟

قال : أجل انك لعلى خطأ . فليس للعمر أية علاقـة بالمختارة ، الشهادة التي يحملها عصام ستسهل أمامه السبيل إلى سدة المختارة !

قالت : لم أفهم .. وكيف سيتخلى أبو درويش لأبننـا عصام عن هذا المنصب الرفيع ؟

قال موضحاً : أبو درويش لن يتخلى عن المختارة مختاراً. أبناء القرية سيعزلونه .

فعادت إلى التساؤل ، كيف ؟ أوضح ، أوضح يا ابـا عصام . لقد شغلت فكري وأثرت هواجسي !

قال : اسمعي يا أم عصام ، اسمعي . بعد شهور قليلة سيجري الانتخاب .انتخاب المختار . وسنرشح عصامـــاً للمنصب العالي ، وسيتهافت ابناء القرية لانتخاب الفيلسوف عصام سلوم .. وتصبحين أنت أم المختار بأربعة وعشرين قيراطاً .

ففتحت فمها دهشة واستغراباً . وهمست : فليأخذ الله نصف عمري ويهبني هذا اللقب يا أبا عصام . أم المختار؟ هل يتحقق هـذا الحلم يوماً ؟

قال : سيتحقق باذن الله !

فتمتمت : وأمرّغ انف « ام درويش » ، زوجة المختار التي تتباهى وتشمخ وتتعالى علي؟. يومذاك ، يوم أصبح ام المختار لن تستطيع « الست » أم درويش أن تنظر الي

نظرة الامتهان والاحتقار .

قال : اطمئني لقد أضحى هذا اللقب في الجيب يا ام عصام منذ الآن !

واطمأنت ام عصام ، ورفعت نظرها إلى السماء تشكر الله سبحانه وتعالى على هذه النعمة بعد ان ضمن لها زوجها هذا اللقب .

وهمست : شكرا لك يا رب فقد منحتني اكثر مما أطلب واتمنى وأصبو اليه .

وشاركها أبو عصام الشكر والابتهال وهمس : الف الف شكر لك يا الهي على هذه النعمة السمحاء .

•

نجيب سلوم على حنق وغضب وعبوس .

وابنه الفيلسوف سبب حنقه وغضبه وتجهم وجهه ، فقد أبى عصام أن يحقق أماني والده واحلام أمه العذاب.

أبى أن يكون مختاراً.ورفض منافسة ابي درويش ، وانتزاع المنصب الرفيع من يده .

ووقف عصام امام والده ليقول : لا ... لن أكون مختارا في هذه القرية يا والدي .

فازداد ابو عصام تجهماً وعقوساً.وتمتم متسائلاً : لماذا ؟

هل لي ان اعلم السبب في رفضك هذه النعمة ؟

فأجاب عصام : انا لم اسعَ وراء العلم ، ولم اكد واتعب واجاهد طيلة سنوات لأتولى المختِرة .

فهمس نجيب سلوم : وماذا ستفعل اذن ؟ هل تعود الى الحقل ؟ أتروقك الحراثة والفلاحة ؟ اتكون فلاحاً ولا تكون مختارا يا ابني ؟

قال : لا ... ولن اكون فلاحاً .

فازداد ابو عصام حيرة : ماذا يريد عصام ؟ بماذا يحلم؟ وما هو هدفه ؟

واستطرد بحيرة وحنق : وماذا اذن ؟ ما هي المهنة التي تروقك ؟ اتريد ان تكون معلماً ؟. لا بأس فمدرسة القرية بحاجة الى معلم ؟

وبدا ابو عصام راضياً عن معلم المدرسة . لا بأس إذا فاته لقب « والد المختار » فهو سينال لقب « والد المعلم » .

غير ان عصاماً فجعه بهذه الأمنية ايضاً ، قال : لا ، ولن اكون معلماً في مدرسة القرية !

فاحتار نجيب سلوم في امره : ماذا يريد عصام ؟ فهو قد رفض المختِرة ، وابى ان يكون معلم مدرسة ، فماذا يريد اذن ؟ ألعله يريد ان ينخرط في سلك الدرك ويصبح شاويشاً ؟ لا بأس ... منصب الشاويش ليس بأقل قيمة من منصب المختار ولا هو بأقل شأناً من منصب معلم المدرسة ..

وأم عصام المسكينة التي كانت تطمع بلقب « أم المختار » ستكتفي بلقب « أم الشاويش » .

والتفت نجيب سلوم الى ابنه يسأله : ايروق في عينك منصب الشاويش يا ابني ؟

فلمعت ابتسامة واهية كالضباب ، صفراء كالخريف على شفتي الفيلسوف وهمس : لا . . أنا ما سعيت وراء العلم يا والدي ، وما جاهدت وسهرت ودرست وراء شهادة الفلسفة لاصبح شاويشا .

فضرب أبو عصام كفا بكف وهدر : حيرتني يا ابني انك لترفض المناصب العالية الرفيعة التي اعرضها عليك . ماذا تريد يا عصام ؟ ماذا ستفعل يا ابني بهذه العلوم التي خزنتها في رأسك ؟ قل . . مـــاذا تريد ان تكون ؟ المخترة ؟ رفضتها ، الاستذة ؟ كفرت بها .. ووصل بك الرفض الى منصب الشاويش الرفيع ، ماذا تريد ان تفعل وقد اصبحت فيلسوفا باربعة وعشرين قيراطا ؟

فعادت الابتسامة الصفراء تتراقص على شفتي عصام ابن ابي عصام وهمس : ساعود الى المدرسة .

فصعق ابو عصام وتمتم : تعود الى المدرسة ، وقد بلغت منها نهاية المطاف ؟

قال عصام : لا يا والدي . أنا لم ابلغ بعـد من العلم نهاية المطاف . ما زلت في اول الطريق .

– اول الطريق ؟ .. اذا كانت شهادة الفلسفة اول الطريق ، فاين تكون النهاية يا ابني ؟

قال عصام موضحا :

– طريق العلم بعيـد يا والدي . مهما سار الانسان فيه لا يستطيع ان يصل منه الى النهاية ..

قال ابو عصام :

– معنى هذا انك تريد ان تقضي العمر في المسير يا عصام ؟

فأجاب عصام :

– لا يا والدي . لن أقضي العمر في المسير وراء العلم . أمـــامي سنوات اربع .. سنوات أربع فقط وأظفر ببراءة الحقوق .

– الحقوق ؟ وأي حقوق هذه ؟ وحقوق من تريد أن تتعدى عليها وتظفر بها ؟

فاتسعت الابتسامة على شفتي عصام وهمس :

– الحقوق علم يا والدي انه علم مثل سائر العلوم . من يتلقَّ علم الحقوق يصبح محامياً يدافع عن المظلومين أمام القضاء ، وينتزع الحق من سالبيه ويعيده إلى صاحبه .

فقلب أبو عصام شفتيه وهز كتفيه ، وتمتم :

– لم أفهم ...

وعاد عصام إلى الإيضاح وقال :

– مهنة المحاماة يا والدي مهنة مشرفة والمحـامي هو

المدافع عن الحق هو نصير المظلوم .

فهمس أبو عصام :

ـ هل هو أعلى مقاماً من المختار ؟

قال عصام :

ـ المختار على الرأس والعين ، إلا ان المحامي يختلف عن المختار اختلافاً كبيراً ..

ـ كيف ؟

ـ المختار ممثل الدولة في القرية . أما المحامي فهو ممثل الشعب عند الدولة .

ـ زدتني عمياً يا ابني ..

ـ اسمع يا والدي ، غداً عندما يصبح ابنك محامياً ستدرك أي مقام رفيع مقام المحامي ..

قال أبو عصام :

ـ الذي أريد أن أعرفه الآن ، هو : هل ان مقام المحامي أرفع من مقام المختار ؟ أم ان مقام المختار أرفع من مقام المحامي ؟

قال عصام :

ـ ليس ثمة « مقامات » والإنسان هو الذي يجعل المقام قيمة ، أما المقام فلا يستطيع أن يرفع من قيمة الإنسان ..

فضرب أبو عصام كفاً بكف وهدر :

ـ لم أفهم ، لم أفهم ، تخاطبني بالفلسفة وأنا لست

مثلك فيلسوفاً يا عصام ، ولكن ما أريد أن أوضحه لك الآن هو ان والدك مرهق بالديون . فالكرم مرهون عند البيك ، والحقل يرزح تحت ثقل الفائدة التي فرضها علينا المصرف. لقد رهنت الكرم والحقل كي أستطيع أن أسدد ثمن علمك ، كي أستطيع أن أشتري لك شهادة الفلسفة ، وقد خيل الي انك ستعمل وتشتغل بعد أن تنهي دروسك « فتفك » رهن الحقل والكرم وتعيد لنا ميراث آبائنا وجدودنا . ثق يا عصام انني لن استطيع أن أمدك بليرة واحدة يا ابني .

فهمس عصام سلوم ، وقد اثار كلام والده الالم في نفسه والحزن في قلبه :

– ولن أطلب منك ليرة واحدة يا والدي الحبيب ..

قال أبو عصام :

– وهل سيبيعونك شهادة الحقوق بلا مال ؟ أتعود إلى المدرسة وتنهل العلم بدون ثمن ؟

قال : لا .. لن استجدي العلم يا والدي ، لن أحصل على براءة الحقوق بلا ثمن ..

– ومن أين ستحصل على المال يا عصام ؟

– سأشتغل ، وأسدد نفقات الجامعة !

فدهش أبو عصام ، وتمتم باستفهام :

– تشتغل ؟ كيف تستطيع أن تشتغل وأن تتعلم في آن واحد ؟

فأوضح عصام لوالده السر، قال:

ـ الدرس في الجامعة غيره في الثانوية يا والدي. في الجامعة لست مضطراً إلى المواظبة على الدرس منذ الصباح حتى المساء، هناك في الجامعة تبدأ الدروس، بعد الظهر، وربما بدأت في المساء، يشخص الطلاب الجـامعيون إلى الجامعة في المساء فيستمعون إلى المحاضرات ثم يعودون أدراجهم لينكبوا على استيعاب وتحليل ما استمعوا اليه.

قال والد عصام:

ـ إذن أنت ستنصرف إلى العمل وإلى تحصيل العلم في آن واحد؟

فأجاب: أجل، ساعمل فأتقاضى بدل عملي. وأتلقى العلم وانفق في سبيله ما اتقاضاه من عملي. لن يكون ما أتقاضاه وفيراً يا والدي إلا انه سيكفيني وسيدفع عني البؤس والفقر والعوز ريثما انال البراءة المرجوة. كل مـا أطلب اليك هو أن تنتظر أربع سنوات فقـط، أربع سنوات وأصبح محاميـاً قادراً على الوصول إلى المال فأستعيد حقلنا وكرمنا وأغدق عليك وعلى أمي وشقيقاتي المال الوفير. أربع سنوات فقط ويصبح ابنك عصام محامياً «قد الدنيا!»

فصمت نجيب سلوم على مضض، ليعود بعد صمت قصير إلى الكلام فيقول:

ـ أربع سنوات؟.. أتراني أعيش أربـع سنوات

يا عصام ؟

– ثق يا والدي ، انني سأعود اليك بعد سنوات أربع حاملاً براءة الحقوق والمستقبل باسم لي ولكم !.

فعاد أبو عصام إلى الصمت يعتصم به ، وإلى التفكير يستغرق بين حناياه .

وعاد إلى الكلام بعد صمت قصير قال :

– لا بأس . سأنتظر أربع سنوات . ولكن بشرط !.

قال : ما هو شرطك يا والدي ؟

قال : شرطي أن تكون مختاراً بعد أربع سنوات ، وبعد أن تنال براءة الحقوق . أنا سأنتظر أربع سنوات لأحظى بلقب والد المختار ، ولكن هات لي من يقنع امك بالانتظار .

فابتسم عصام وتمتم :

– أنا أتولى اقناعها . اطمئن !

قال نجيب سلوم :

– أريد منك وعداً قاطعاً بأنك ستصبح مختاراً وتمنحني لقب والد المختار ..

قال : من الآن إلى سنوات أربع يفرجها الله . أعدك الآن بأنني سأفوز ببراءة الحقوق ، أما المخترة فليس لي أن أضمن الوصول اليها ..

فارتاح نجيب سلوم بعض الارتياح وقال :

– أنا لا أطلب اليك أن تضمن الوصول إلى المخترة ،

بل أطلب اليك أن توافق على قبولها وأنا « أسوكرها »
لك في الجيب !

ولم يكتف نجيب سلوم بهذا التلميح ، بل عمـــد إلى
التصريح فاقترب من ابنه هامساً في اذنه :

– ان البيك مستاء من المختار أبي درويش وقد وعدني
بأن يدعم ترشيحك في انتخاب المخاتير وان يوصلك إلى
المخترة !

فعادت الابتسامة تطفو على ثغر الشاب الفيلسوف ،
فخيل لأبيه انها ابتسامة الرضى والارتياح ، وقد جهل
ان تلك الابتسامة كانت ابتسامة الهزء والسخرية !

الفصل الثاني

مضى عصام سلوم في البحث عن عمل يؤمّن له نفقات العلم في الجامعة إلا انه لم يوفق في ما سعى اليه .

فالأزمة خانقة وطرق التوظيف مقطوعة مسدودة أمام حملة الشهادات والبراءات .

والعام ذاك عام ١٩٤٠ .

والحرب الكونية الثانية تندلع نارها فتحرق كل ما يقع في طريقها وتتركه رماداً تنثره الرياح العاتيـــة الهوجاء .

والفرنسيون ، وهم القابضون على زمـام الحكم في لبنان منصرفون إلى الاهـتمام بشؤون الحرب لا يأبهـون للازمة الاقتصادية العاصفة بالبلاد .

والللبنانيون يقفون على قلق وخشية واضطراب ، وهم

الذين ذاقوا مرارة الحرب وويلاتها عام ١٩١٤ .

وقــد خيل للبنانيين ان مأساة الحرب الكونية الاولى ستتكرر وتعود إلى الظهور في الحرب الكونية الثانية .

الا ان مخاوفهم تبددت .

فقد مضى العام الاول من الحرب ، دون أن يشعروا بان هناك حربا تلتهم العالم .

لم يشعروا بويــلات الحرب ولا سمعوا ازيز الرصاص وقصف المدافع .

الا انهــم احسوا الازمــة الاقتصادية ولمسوا الضيق . فــــلا عمل لمن يطلب عملا . ولا فرج لمن يطلب الفرج

وراح عصام سلوم يطرق الابواب ، ابواب الشركات والمصارف والمؤسسات التجارية والصناعية ، دون أن يلاقي جواباً ودون ان يفتح امامه باب .

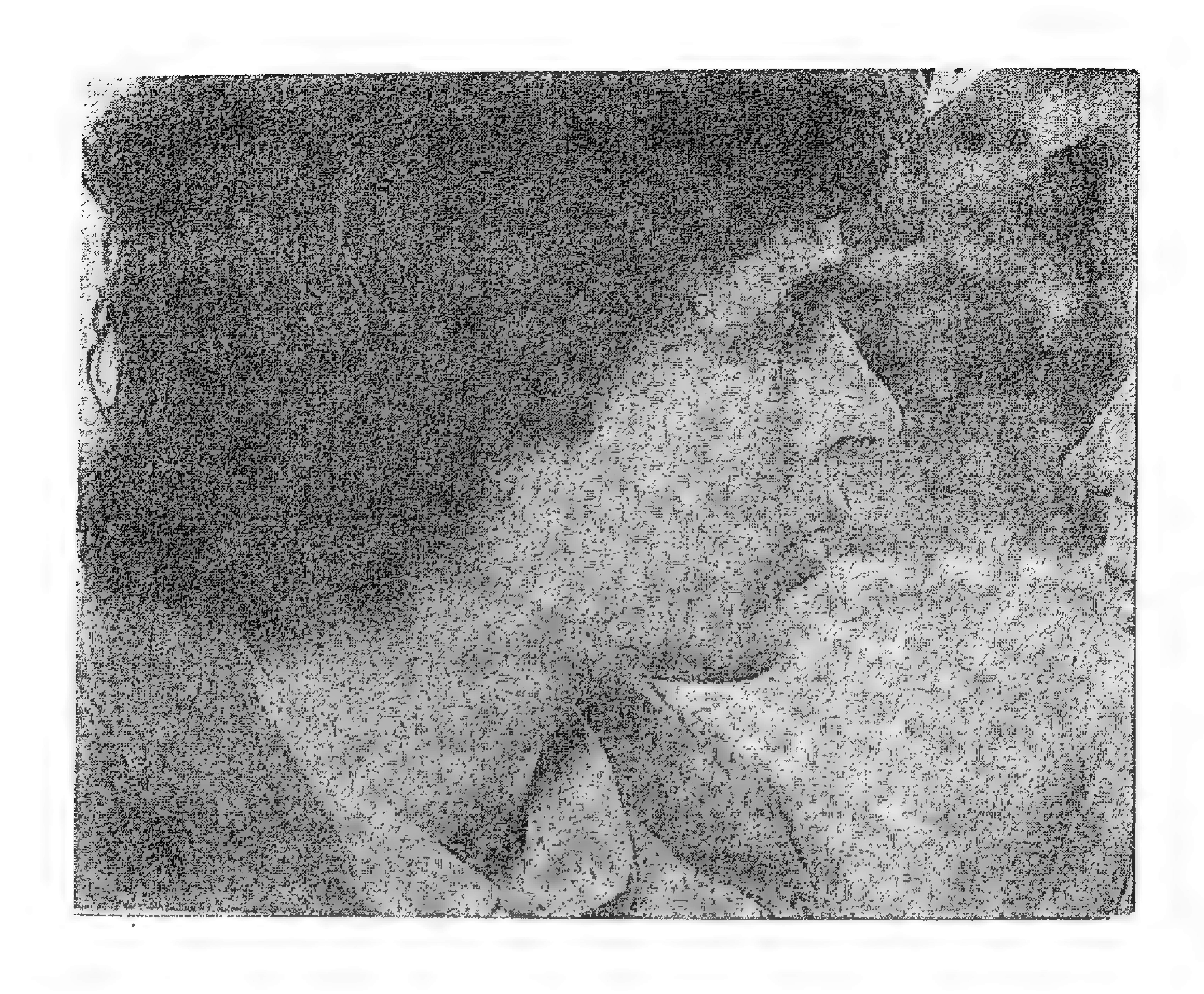
وبدأ الصيف يلملم اطرافه .

وغمام الخريف المتأهب للوثوب بدأت تنتشر في الفضاء معلنة للصيف اقتراب الرحيل ومبشرة الخريف بالبزوغ .

وبدأ عند الحاصدين في اعالي الجبال اللبنانية ، موسم الحصــاد فانتشروا في الحقول يجزون السنابــــل الصفراء ويلقون بها على البيادر .

وراح المزارعون يقطفون الاثمار الناضجة ، وينقلونهــا إلى المدينة .

والكرامــــون انتشروا في الكروم يجمعون العناقيد



الصفراء ويحملونها إلى المعاصر ..

وبدت الطبيعة واهية في كآبتها وحزنهـــا واكفهرار جبينها وهي تودع الصيف المتأهب للرحيل ..

وهنـاك في الكروم الرابض في اعـالي الجبال على تيه وكبرياء واعتداد ، في كرم نجيب سلوم .

ـ راح نجيب سلوم وزوجته وابنـه الفيلسوف عصام وبناتـه الثلاث نسيمة ، وحليمة وكريـمة ، يقطفون

العناقيد الصفراء وكأنها ثريات من ذهب وينقلونها إلى المعصرة ..

وبدا من عصام انه غارق في الالم والعذاب ، فهو مقطب الجبين ، تائه النظرات ، شارد الذهن بعيد التفكير ..

واقترب نجيب سلوم من ابنه الفيلسوف متسائلا :

– عصام ! .. ما بك يا ابني !

اراك على غير ما عهدتك ! ..

فحاول عصام التموية بابتسامة ، بدت واهية كنسيم الخريف ، صفراء كاوراقه المتناثرة بين ايدي الرياح ..

ومضى نجيب سلوم في السؤال :

– ما بك يا عصام ؟ اراك تائه النظرات مضطرب الخاطر ، قلق البال ؟

وهمس عصام :

لا شيء .. انني بألف خير يا والدي !

قال نجيب : اراك مهموماً ، فكأنك تحمل الدنيا باثقالها على منكبيك . قل لي ما بك

وصمت عصام ...

وعاد والده إلى الاقتراب منه ليقول بتساؤل ملحاح

ألم توفق في العثور على عمل ؟

ورأى الابن الفيلسوف ان يبوح لوالده الفلاح القروي المزارع بالسر فتمتم :

– لا .. لم اوفق يا والدي ، وقــد اقترب موعد الدخول إلى الجامعة ، ولست ادري ماذا افعل ..

فابتسم الوالد الحنون وهمس :

ستظل بحاجـة إلى والدك يا عصام ولو حملت الف شهادة فلسفة .. اسمع يا ابني . معي الف ليرة سأمدك بها كي تتدبر امـرك الان . وغـداً سأدلف بــك إلى « البيك » واطلب اليه ان يجـد لــك وظيفة ، البيك صديقي ، وقــد مددت له يد المساعدة في الانتخابات وهو لن يرد لي طلباً ..

فاشرق الامل في عيني الشاب الفيلسوف ، وهمس :

– شكراً لك يا والدي الحبيب شكراً لك ..

ومضى عصام في العمل وقد ارتاح بعض الارتياح .. والده رفع العبء الثقيل عن عاتقه ، يا للوالد الحنون ، الكريم العطوف !

•

واندفع عصام في قطف المناقيد وهو يفكر . لقد هان الامـر وحلت المعضلة . والــده الكريم العطوف سيمده بألف ليرة وهــو مبلغ ليس بالقليل – والالف

يومذاك يضاهي الألوف اليوم – فالمال اذن اصبح مؤمنا، سيسدّد القسط الاول من مرتب الجامعة ، ويستأجر منزلا ..

يستأجر منزلا ؟ ..

لا لماذا المنزل وهو ليس بحاجة إلى سوى غرفة واحدة يأوي اليها وينكب على الدرس فيها ويرتاح بين جدرانها الاربعة ..

سيستأجر غرفة واحدة .

غرفة تكفي وتزيد .

ثم ينصرف إلى الدرس وإلى العمل .

يعمل ويكسب لقمة الخبز بعرق الجبين ويؤمن نفقات العلم والمسكن والطعام ، ويدرس ، ويتابع تحصيل العلم ويستمع إلى المحاضرات في الجامعة ...

اربع سنوات فقط ويصبح محاميا يحمل براءة الحقوق ويدافع عن البائسين المظلومين !

ومرَّ شريط المستقبل الزاهر الزاهي امام عينيه .

وشاهد نفسه في شريط الرؤيا يرتدي « الروب » ثوب المحاماة الاسود ، ويقف امام القضاء مدافعاً عن مظلوم ويسهب في الدفاع فتتناثر الدرر من بين شفتيه ويفيض في بسط البراهين القاطعة والاجتهادات الساطعة فتثير في نفوس القضاء الماثل امامهم مكامن الحق وعاطفة الاشفاق



واهتز طرباً وتيهاً ودلالا واعجابا بنفسه وقد وصلت به الرؤيا إلى هذا الحد .وهمس في سره :

« يا لك من محام لامع حاذق يا استاذ عصام »

وانقضى النهار وعصـــام سلـوم منصرف إلى العمل والتفكير .

ووقفت الشمس على مشارف الافـــق البعيد تهـم بالانحدار إلى ما وراء الافق البعيد .

وبدأ القطافون يتأهبون للعودة إلى منازلهم وقد قاموا بعمل النهار وحان وقت السكينة والارتياح .

ولملمت خيوط الشمس الواهية اطرافهـا عن تلـك الجبال والوهاد والتلال فسار عصام مع القطافين العائدين إلى دورهم ، والرؤى والاحلام الزاهية العذاب ، تتمايل امام عينيه !

ولم تنسلخ تلـــك الرؤى عنه حتى بعد ان استسلم للرقاد .

فقد لاح له ثوب المحامـــاة وقوس المحكمة والقضاة والمتهم المظلوم والشهود والنائب العام وقاعة المحكمة التي تزدحم بالجماهير ، الـتي جاءت لتستمع إلى دفاع المحامي المفوه اللامع عصام سلوم .

وانسابت الاحلام الهانئة الفاتنة عبر نفسه المضطربة الهائمة إلى رأسه .

واستغرق في النوم على هذه الاحلام الباسمة المخضلة الجناح .

ولم يستفق إلا على صوت امه الحنون : « عصام ! .. قم يا ابني .. قم .. هالشمس قد اطلت وغمرت السهول والجبال والوديان . قم يا عصام .. والدك سبقك إلى الكرم . قم يا عصام قم » .

وافاق عصام .

واستوى في سريره .

وجال بنظره في انحاء المنزل القديم باحثا عن قوس المحكمة وعن القضاة وعن الجماهير وعن المتهم المظلوم ...

وهمس في سره : حلم .. الا انه حلم جميل .. سيتحقق حلمي . لا بد للحلم من أن يتحقق. سأكون محاميا ، محاميا لامعا ينتزع الحق من الظالمين ويعيده إلى اصحابه المظلومين ، هدفي براءة الحقوق ولا بد لي من الوصول إلى الهدف !

ووثب من السرير ليرتدي ثيابه على عجل ويتناول طعام الصباح ثم يلحق بوالده إلى الكرم .

وابتسم في سره وهو يسير إلى العمل : « يا لسخرية الايام .. انا .. حامل شهادة الفلسفة والذي سيحمل براءة الحقوق يعمل الان عاملا في قطف العناقيد وحملها إلى المعصرة ؟ »

ووصل إلى الكرم ..

فاذا بوالده منصرف إلى العمل بكد ونشاط ، فراح يساعده وهو تائه الفكر شارد الذهن ضائع النظرات !

ومضى الاب والابن في العمل وفي الحديث

يعملان ويتحدثان ويتبادلان الآراء .

وعاد عصام إلى اثارة قضيته ...

قضية العمل والالتحاق بالجامعة فقال : « لقد اشرف الصيف على الافول يا والدي وبدأ الخريف يتأهب ليعرّي الاشجار من ثوبها الاخضر ، والغيام بدأت تنتشر وشاحها في الفضاء الواسع الرحيب . واقترب موعد افتتاح العام الجامعي ، والجامعة ستكون مشرعة الابواب بعد اسابيع قليلة .

ماذا سنفعل يا والدي ؟ متى سنسعى إلى تحقيق ما اتفقنا عليه !

قال نجيب سلوم وهو ماض في قطف العناقيد :

— اسبوع واحد وننتهي من القطاف ومن العمل في المعصرة واشخص بك إلى البيك ومن قصر البيك إلى مقر عملك ثم إلى الجامعة . اطمئن يا ابني تريد ان تكون محاميا وسيكون لك ما تريد !

وبر الوالد بوعده ..

ما ان انقضى الاسبوع وبدأ القطافون يهجرون الكروم حتى كان نجيب سلوم يمسك بيد ابنه عصام

ويشخص به إلى قصر « البيك » الرابض على انفة وشموخ وكبرياء فوق ربوة طلقة خضراء !

ومثل نجيب سلوم ، بابنه الفيلسوف بين يدي سيد القصر والبسمة تطفو منه على الشفتين .

وتمتم : جئتك يا سيدي البيك في حاجة ارجو قضاءها .

فهمس « البيك » بلطف يغمره الاعتداد : « اهلا بابي عصام . حاجتك مقضية لدينا. ماذا تريد ؟

والبيك محام لامع ، وعضو بارز متفوق في المجلس النيابي .

وهو بحاجة إلى ابي عصام ، وابو عصام « يمون » على افراد اسرته وعلى بعض ابناء القرية ويضمن للبيك في كل جولة انتخابية زهاء مئة ناخب يلقون بأوراق تحمل اسم البيك « جابر العواد » في صندوق الاقتراع .

قال نجيب سلوم: « المحروس » عصام فاز هذا العام بشهادة الفلسفة » ..

فابتسمت الابتسامة الواهية على شفتي النائب جابر العواد وهمس باستفهام ، وكأنه لا يصدق : صحيح !.

وقبل ان يجيب ابو عصام على سؤال البيك التفت النائب إلى عصام متمتما :

— لك تهاني المخلصة يا عصام !

فهمس الفتى الفيلسوف :

شكراً يا سيدي البيك !

وعاد ابو عصام إلى الكلام قال :

حاولت جاهدا اقناع عصام بأن يخلف ابا درويش في منصب المختره فاخفقت ، وحاولت ان اقنعه بأن يكون معلما في القرية فعجزت عن اقناعه . اتعلمون لماذا يا جابر بيك ؟

فتساءل جابر بيك :

لماذا يا ابا عصام ؟

قال نجيب سلوم :

لانه يريد ان يكون محاميا !

وكان ابو عصام ينتظر من البيك ان يبدي اسفه على ضياع المختره والتعليم في مدرسة القرية من يدي عصام ، وان يحاول اقناعه بالعدول عما عزم عليه ، الا انه دهش وهو يسمع البيك يخاطب عصاما بقوله :

نعم الاختيار يا عصام . مهنة المحاماة مهنة مشرفة نبيلة. يكفي انها مهنة الدفاع عن البائسين المظلومين . سر يا بني في الطريق الذي اخترت . ويوم تنال براءة الحقوق ستجد ابواب مكتبي مشرعة امامك !

فارتاح عصام سلوم كل الارتياح وكلمات البيك تقع منه في الاذنين .



وهمس : الف شكر لك يا سيدي .

– وعاد ابو عصام إلى الكلام هامسا :

– المشكلة الان هي ان عصاماً يريـد ان يقع على وظيفة يريـــد ان يعمل نهاراً وان يسعى وراء لقب « المحامي » ليلا .

فادرك النائب جابر العواد حاجة نجيب سلوم، قال :

– اتكون هذه حاجتك يا ابا عصام ؟

قال ابو عصام :

– هذه هي يا سيدي !

فعادت الابتسامة تتسع على شفتي البيك ليقول مخاطبا الشاب الفيلسوف :

اسمع يا ابني عصام . ابناء المنطقة الذين يؤمون هـذا القصر طالبين وظـائف كثيرون ، والوظائف اليوم ، والحرب تجتاح العالم ، ورجال الانتداب يحتلون بلادنا ، اضحت عزيزة نادرة !

فانقبض قلب والد الفيلسوف وهو يسمع مـــا يقول البيك :

يا ضياع الامل . ايكون قد اخفق في مسعاه ؟

الا أن الامـل عاد يغمر قلب ابي عصام وهو يسمع البيك يكمل حديثه مع عصام فيقول :

– الا انني لن اخيب املك .

فوالدك صديـق عزيز علي . وله جميل في عنقي لن انساه !

فحاول ابو عصام الاعتراض على مـا يقول البيك ، حـاول ان ينفي « تهمة » الجميل الذي قلده للبيك ، إلا أن جـابراً العواد قطع عليه الكلام قائـــلا : والدك يا عصام من انصاري وانصاري هم السـاعـد الذي يؤمن لي الفوز في كل انتخـاب . هـذا فضلا عن الصداقة المتينة التي تربطني بأسرتك . لذلك فأنا سأجد لـك عملا تستطيع ان تؤمن بواسطته نفقات العلم والعيش في بيروت .

قال ابو عصام :

– لم اكن لأشك ياسيدي بأن طلبي سيلقي لديـــك الاهتمام .

وتابع النائب جابر العواد كلامه مخاطبا عصاما :

– ستكون موظفاً في مكتبي الان .

انها وظيفة بسيطة كما يلوح لك . لن تغنيك ولكنها ستكفيك . ووجودك في مكتب محـام سينير امامـك السبيل ويساعـدك على فهم مـــا يخفي عليك من اسرار المهنة ، الان ستكـون موظفـــا في مكتبي تتولى ادارة

المكتب وضرب الرسائل واوراق الدعاوي على الالة الكاتبة وتشخص من حين إلى آخر إلى قصر العدل حاملاً الملفات والدعاوي . ستتولى مهمات غير صعبة ويوم تصبح محاميا ستقضي مدة التدرج على يدي في مكتبي. سأتعهد امرك يا ابني وارجو ان تستطيع تحقيق امانيك العذاب

فغمرت الفرحة الطلقة قلب الشاب الفيلسوف عصام سلوم .

وهمس : شكراً لك يا سيدي ، وكل ما ارجوه هو ان اكون عند حسن الظن وان استطيع القيام بالواجب المفروض في خدمتك .

وتدخل والد عصام ليقول : متى سيبدأ عصام العمل يا جابر بيك ؟

قال : متى شاء .. غداً إذا اراد !

فالتفت ابو عصام إلى ابنه الفيلسوف متمتا :

– لم يخب ظننا في البيك يا ابني . لقد كنت انتظر منه هذا الكرم وهذا النبل وهذه الشهامة والقريحة والوفاء .

قال عصام مخاطبا البيك :

– شكراً يا سيدي لن استطيع غدا ان إاكون عندك في المكتب. سأسعى منذ الغد إلى الوقوع على مكان آوي اليه في بيروت. سأستأجر غرفة احل فيها ثم اسجل

أسمي في الجامعة وعندما اطمئن إلى مقري واضمن تسجيل اسمي في الجامعة اكون رهن اشارتك

قال البيك: وستجدني بانتظارك يا عصام !

وودع ابو عصام وابنه البيك شاكرين حامدين متفائلين مستبشرين .

•

ومع مطلع صباح اليوم التالي كان عصام يتسلم من والده عشر ورقات نقدية من فئة مئة ليرة . هي كل ما يملك ابو عصام ، ويطير إلى بيروت ليشخص إلى جامعة الاباء الياسوعيين . جامعة القديس يوسف ، طالبا تسجيل اسمه في كلية الحقوق !

ولم يلق عصام سلوم صعوبة في ادراج اسمه بين طلاب الحقوق في جامعة الاباء الياسوعيين . فهو من طلاب ثانويتهم ، ولطلاب الثانوية عند الاباء الياسوعيين الافضلية في جامعتهم !

واطمأن عصام وقد ادرج اسمه بين طلاب الحقوق وايقن ان لقب المحامي اصبح مضمونا في الجيب .

وانصرف إلى البحث عن مقر يأوي اليه .

وكما وفق عصام في الوقوع على مقعد في كلية الحقوق وفق في الوقوع على المقر المنشود .

فقد اهتدى إلى غرفة صغيرة الا انها انيقة طلقة في دار قديمة البناء لا تبعد عن الجامعة الا القليل .

والدار تلك تقيم فيها اثنتان . امراة في العقد السادس من العمر وفتـاة في اواخر العقد الثاني – في الثامنة أو في التاسعة-عشرة على ابعد تقدير !

ووقف ابن ابي عصام في تلك الدار يخاطب ابنة الستين وهي صاحبة الدار مساوما على بدل الايجار .

وتمتمت صاحبة الدار :

الاجرة عشرون ليرة في الشهر يا ابنى . غير ان المال لا يهمني بقدر ما يهمني ان اعرف من أنت ، ومن هو والدك ، وما هي مهنتك ؟

فأجاب : انا ابن قروي مزارع من قرية صغيرة خضراء تجثم عند اقدام جبل من جبال الارز في شمال لبنان . طالب في معهد الحقوق اسمي عصام سلوم .

وارتاحت ابنة الستين لما يقوله الشاب الماثل امامها وهمست :

اسمع يا ابني يا عصام . انا ارملة رجل عاش حياته

مكافحا في هذه الحياة ، اعيش مع ابنتي الوحيدة نجاة في هذه الدار وليس لنا من مورد الا عملنا وبدل ايجار هذه الغرفة ، انا ونجاة نعمل في الخياطة ، اننا مضطرتان للعمل لأن زوجي الراحل بديع الوردي لم يترك لنا شيئاً في هذه الحياة الا الكرامة والشرف . فقد عاش شريفاً ، وكان من الطبيعي ، وهو الشريف النبيل ان يموت فقيراً ، وقد حافظنا على الميراث ، على الشرف والكرامة. وسنحافظ عليهما حتى الرمق الاخير يا ابني ، فلا قيمة للمال عندنا . القيمة لدينا هي الشرف الاثيل والكرامة المثناف .

فأدرك عصام سلوم الغاية من هذه المقدمة التي تنفحه بها ارملة بديع الوردي . أدرك ، وهو الذكي النبيه ، أن ام نجاة تريد ان تفهمه تلميحا ان ليس له ان يجنح عن طريق الادب والتهذيب إذا شاء ان يحل في الغرفة الصغيرة الجاثمة في دارها .

فهمس :

اطمئني يا سيدتي . فالشرف الذي تحرصين عليه هو نفسه ما احرص عليه أنا ، والكرامة التي تعتصمين بها هي هي ما انشد وما اروم .

فراقها بيانه ، واعجبت بنباهته وذكائه ، فهو قد ادرك كل ما ترمي اليه ، ووقف على كل ما تريد أن

توضح وتسهب .

قالت : اتفقنا إذن ، ستحل في هذه الغرفة وستكون عندي في مقام ابني ، وستكون ابنتي نجاة كأختك .

والتفت عصام إلى نجاة ، فاذا بها منصرفة إلى عملها . تخيط ثوباً وتستمع إلى ما يدور بينه وبين امها من حديث وكأن الأمر لا يعنيها ، فراقه جمالها واعجب برصانتها وادبها ، فهي لم ترفع نظرها عن الابرة والخيط والثوب ، ولا رمقته بنظرة ، ولا اعارته اهتماماً .

وهذا ما اهاب به إلى الاعجاب بها والتقدير لخلقها الرفيع .

ومد عصام يده إلى جيبه ليخرجها قابضة على ورقتين نقديتين ، كل ورقة بعشر ليرات لبنانية دفع بهما إلى عفيفة الوردي هامساً :

– هذا بدل ايجار الغرفة يا سيدتي سأحمل غداً امتعتي وأعود .

قالت ويدها تقبض على الورقتين :

– هذه الغرفة لك منذ الآن ، تستطيع يا ابني ان تحتلها منذ الساعة على الرحب والسعة ، وثق أنك ستقع فينا على اهل احباء مخلصين .

واطمأن عصام سلوم بعض الاطمئنان وقد وقع على

مأوى يأوي اليه .

وإزداد اطمئناناً وقد بدأ عمله في مكتب جابر بيك وبدأ ايضاً متابعة المحاضرات في الجامعة : الحمد لله ، ثم الحمد لله ، جميع المعضلات التي كانت تعترض سبيله حلت :

سجل اسمه بين طلاب الجامعة .

ووجد وظيفة في مكتب البيك تؤمن له نفقاته .

ووقع على غرفة هادئة يأوي اليها ..

وماذا يريد عصام سلوم غير هذا ؟

***

الفصل الثالث

الليل ساجي الاديم ، هادىء النسمات ، بعيد الرؤى والاحلام .

وبيروت هاجعة بين احضان الليل البهيم ..

هاجعة ؟ ..

لا .. بيروت لا تنام ولا تهجع .

ما هناك سوى بعض الاحياء القليلة تلجأ إلى الهجوع في بيروت .

أما الاحياء الارستقراطية ، وشوارع الملاهي والنوادي في بيروت فـــلا تعرف للنوم طعما ولا للكرى تعرف الطريق .

فهي ساهرة منذ غياب الشمس حتى بزوغ الصباح على عربدة ولذة وفرح ومجون .

وحي « رأس النبع » القريب من الجامعة اليسوعية .
كان من الاحياء الكافرة بالسهر .

فما أن ينتصف الليل حتى تطفأ المصابيح في المنازل ويأوي ابناء الحي إلى اسرتهم ينغمسون فيها على نوم هانىء عميق .

وغرق حي رأس النبع في الهدوء الساجي البعيد .
وساد الظلام المنازل المزدحمة في ذلك الحي .

وغفا الجميع .
فلا حركة ، ولا همسة ، ولا صوت ، حتى ولا نور .

فالظلام يغمر الحي ، ما هناك سوى المصابيح التي تنتصب في الطرقات والازقة في ذلك الحي . اما المنازل فيسودها الظلام ويغمرها السكون .

وهناك في غرفة ، تجثم في دار متواضعة خجول في حي رأس النبع ينبعث نور واه حزين .

وفي تلك الغرفة الواهية ، على نور المصباح العليل ، جلس عصام سلوم يدرس ويطالع ، ويعيد قراءة المحاضرة التي القاها الاستاذ في الجامعة بكد وجهد وعناء .

وانتصف الليل والطالب الجامعي عصام سلوم جالس وراء منضدة صغيرة يدرس ويراجع ويكد ويجهد .



ومضى الليل في المسير ، والطالب الجامعي ماض في الدرس .

وبدأت أنوار الفجر البعيد تتسلل عبر زجاج النافذة وعصام ما زال في جلسته الممضة المتعبة .

واطل الصباح والطالب الجامعي لا يبرح مقعده وراء المنضدة .

وإذا بالباب ، باب الغرفة الصغيرة ، يقرع .

فنزلت القرعـــات الخفيفة في اذني عصام كضربات مطرقة ابعدته عـــن الانغماس في الاجتهادات والقوانين المنبسطة امامه . وهمس : من .

– أنا ...

وعرف بالصوت ، صوت ام نجـــاة ، صوت عفيفة الوردي صاحبه الدار ، فوثب إلى الباب يفتحه ليفاجـأ بالخياطة ام نجاة حاملة له قهوة الصباح .

وتمتم : صباح الخير .

قالت : صباح الخير يا ابني ، شاهدت النور ينبعث من غرفتك طيلة الليل ، الم تنم ؟

قال : لم انم .. انني مضطر للكد وللتعب يا سيدتي ليس لي ان ارتاح ، والوصول إلى براءة الحقوق بحاجة إلى العدو والتعب والجهاد .

قالت : فليأخذ الله بيدك .. تفضل يا ابني القهوة .

وصبغ الخجل وجنتيه بلونه الاحمر .

وتمتم : ليس لك أن تزعجي نفسك في حمل القهوة الي يا سيدتي .

قــالت ، وهي تقدم له القهوة : أنت عندي بمثابة الابن يا عصام ، تفضل يا ابني ، تفضل .

وتناول فنجان القهوة شاكرا .

وعادت أم نجاة أدراجها .

وما أن انتهى من رشف قهوته حتى أسرع إلى غسل وجهه وارتداء ثيابه ، وهم بالخروج إلى عمـله دون أن يرتاح ودون أن يغفو له جفن .

إلا أن أم نجاة اعترضت سبيله هامسة : ستتناول الشاي قبل انصرافك إلى عملك .

فاعتذر : لا .. شكراً يا سيدتي .

وإذا بنجاة تطل حاملة اليه الشاي والكعك ، فوقف على خجل وحيرة ووجوم ، وهو لا يدري ماذا عليه ان يفعل ، هل يقبل الدعوة ويتناول الشاي ، ام تراه يمضي في الاعتذار ؟

ولم تترك نجاة له سبيل الاختيار فقدمت له الشاي هامسة : تفضل ..

وتفضل ، وتناول فنجان الشاي من يدها يرشفه على مهل ، وهو مأخوذ بالجمـال المتواضع الخجول ، الناعمة فيه نجاة .

وحاولت ام نجاة أن تقدم له الكعك الا انه اعتذر .

واسرع في رشف الشاي ثم ودع الام والابنة وأسرع بالانصراف إلى عمله في مكتب البيك .

وانغمس بالعمل في مكتب البيك وهو يفكر .

يفكر بهذه المعاملة الحسنة التي بادرته بها ارملة بديع ويفكر بابنتها . بنجاة الرائعة الجمال ذات النظرات الحالمة والشفتين البريئتين والروح الصافية الحنون .

ومضى في عمله ووجه ابنة الخياطة ماثل امام عينيه ولم يحاول ابعاد الرؤيا ، لم يحاول الابتعاد بتفكيره عن نجاة ، بل هو وجد نفسه مرتاحاً كل الارتياح إلى الوجه الجميل الماثل في بصيرته .

وود أن يسرع النهار في الانقضاء ، ود أن يقبل المساء على سرعة واندفع كي يعود إلى غرفته في دار عفيفة الوردي ويشاهد نجاة ، فالشوق اليها عصف بروحه ، وملك عليه فؤاده وكاد يفقده هداه .

وعجب من نفسه كيف يفكر بهذه الفتاة الغريبة عنه ، وهو لم يشاهدها سوى مرات قليلة ، مرتين أو ثلاث مرات .

وتساءل في نفسه : لماذا ؟ .. لماذا افكر بها ؟ ..

لماذا تحتل من تفكيري الصميم وتكاد أن تحتل من قلبي حبته ؟ ..

صحيح لماذا ؟ ..

ولم يستطع ان يجيب على السؤال :

ايحبها ؟ ..

مستحيل ... ليس له أن يفكر بالحب .. تفكيره كله يجب أن ينصرف إلى مستقبله . إلى براءة الحقوق ، ومتى وصل إلى الهدف المنشود ، إلى البراءة يحق له عندئذ أن يحب ويعشق ويهوى .

أما الآن فلا ..

والده ينتظر منه الوصول إلى براءة الحقوق كي يعيد اليه دينه .

فالكرم والبستان تثقلهما الديون ، ووالده لا يملك ليرة واحدة .

وشقيقاته نسيمة وحليمة وكريمة ، بانتظاره . وعليه أن يغدق عليهن العاطفة والمال .

المسؤوليات الملقاة على عاتقه جسام وليس له أن يهرب من المسؤوليات الجسام .

وهمس في سره : ليس لي أن افكر بها .. لا .. لن أفكر بسوى مستقبلي ، بسوى براءة الحقوق . يجب أن ابتعد عن الحب ، أو بالاحرى يجب أن ابعد

الحب عني الان ، لئلا يضيعني الحب فأضيّع معه مستقبلي.
موعدي اليوم ليس مـع الحب ، بل هـو مـع براءة الحقوق .

وجهل عصام سلوم اننا لا نستطيع أن نضرب للحب المواعيد .

فالحب كالسارق ، كاللص ، يدهمنا على حين غفلة ، أو هو كالموت يكون قريباً منا يوم نفكر أنه بعيد بعيد بعيد .

وحان موعـد الانصراف من مكتب البيك واقـترب موعد بدء الدروس في الجامعة ، فانتقل الفيلسوف عصام سلوم من المكتب إلى الجامعة .

وفي الجامعـة ، في حـين جلس عصام يستمع إلى محاضرة الاستاذ عاد إلى تفكيره بابنة الخياطة . بنجـاح الوردي .

وشعر بأن محاضرة الاستاذ طالت وهو يريـد أن ينهي الاستاذ الكريم محاضرتـه ليعود إلى غرفته ، إلى نجاة .

الا أن الاستاذ لم يحقق امل عصام ، ولم ينهِ محاضرته بالسرعة المرجوة .

واحس عصام بأنـه يجلس على وخز الابر ، وهـو جالس على مقعد في قاعة المحاضرات فتبرم وتأفف وتمنى



لو أنه يستطيع الانسحاب من القاعة والعودة إلى غرفته الا أن « ما كل يتمنى المرء يدركه » .

واضطر عصام إلى المضي في الاستماع إلى المحاضرة .

وما أن انهى الاستاذ المحاضرة حتى أسرع عصام سلوم في العودة إلى غـرفته محمولا على اجنحة الهوى والشوق والحنين .

واجتاز طالب الحقوق المسافـة القريبة بين الجامعة

ومنزل الارملة الخياطة وهو يفكر بنجاة ، بابنة الخياطة الرائعة الجمال .

ووصل إلى المنزل وفتح الباب بالمفتاح الصغير الذي سلمته اياه صاحبة المنزل .

ودخل على مهل لئلا يزعج الام والابنة ، فاذا بهما ، بالام والابنة ، جالستان في البهو وهما منصرفتان إلى عملهما في الخياطة .

وألقى عليهما التحية ، فرفعتا انظارهما عن الابرة والخيط والثوب، وهمستا : مساء الخير .

وأردفت ارملة بديع الوردي : اهلا وسهلا . لقد ابكرت في العودة الليلة ، أيكون ثمة ما يقلق يا ابني

قال : لا .. لدي الكثير من الدروس . رأيت أن أعود توا من الجامعة لانهاء دروسي .

فتمتمت عفيفة الوردي :

خير ما فعلت يا ابني . تستطيع على الاقل ، أن تنام الليلة ، وتأخذ لنفسك قسطا من الراحة ، بعد أن قضيت طيلة ليلة أمس ساهراً . وأنت منكب على دورسك . أتتناول الطعام يا ابني ؟

قال : لا .. شكراً يا سيدتي .

وكان عصام سلوم يخاطب الام ، وهو يرمق الابنة من حين إلى اخر بنظرات متقطعة ، غير أن الابنة لم ترفع

نظرها اليه ، ولا هي جادت عليه بنظرة عابرة .

ودخل إلى غرفته ليتناول قليلا من الطعام المحفوظ لديه ثم ينصرف إلى الدرس ووجه ابنة الخياطة البهي الجميل يتراقص بين السطور امام عينيه .

•

وفيما عصام سلوم ينصرف إلى مراجعة دروسه كانت عفيفة الوردي وابنتها تتحدثان عنه .

قالت الام : يبدو أن الله رزقنا حسب نيتنا يا نجاة فأرسل الينا هذا الشاب الكامل التهذيب الوفير الادب . فهو غير ابناء المدينة المتهتكين المستهترين البعيدين كل البعد عن الاخلاق الكريمة والادب الرفيع . ابناء القرى الرابضة في اعالي الجبال ما زالوا يحتفظون بالشهامة والنبل والتقى والاخلاق ، فلا الميسر يعرف طريقا اليهم ولا الادمان على التدخين أو المخدرات . يتقون الله ويسلكون سبل الحياة المستقيمة البيضاء . أما اولئك ابناء المدن فهم مندفعون وراء الملذات والشهوات لا يقيمون وزنا للاخلاق ولا يعيرون القيم الانسانية أقل اهتمام .

فتمتمت نجاة ، وهي لا ترفع نظرها عن الابرة :

– يلوح لي منه انه مهتم بدروسه كل الاهتمام ، فهو من الرصانة والاجتهاد والنبل في أعلى مقام .

وهمست ارملة بديع الوردي في اذن ابنتها :

– فليرزقك الله عريسا مثله يا نجاة . أملي الوحيد في الحياة هو أن أراك سعيدة في كنف زوج شهم كريم نبيل قبل أن أموت يا ابنتي .

فصبغ الخجل وجه الفتاة وكلمات امها عن العريس المنشود تقع منها في الاذنين .

وصمتت دون أن تبدي رأيا في ما تقول امها الحنون ومضت الاثنتان ، الام والابنة ، في غرز الابرتين يغمرهما الصمت البعيد ويعصف بهما التفكير العميق الرهيب .

ومضى الوقت سريعاً ، وارملة بديع الوردي وابنتها منصرفتان إلى العمل بهمة وكد ونشاط ، وانتصف الليل وهما ماضيتان في الخياطة .

وإذا بالام تدعو ابنتها إلى الانقطاع عن العمل ، وقد لمست التعب والعياء باديين عليها ، قالت : اذهبي يا ابنتي إلى سريرك . يكفيك عملا وتعبا الان وقد انقضى الهزيع الاول من الليل .

فتمتمت نجاة :

لا .. علينا ان ننتهي من هذا الثوب الليلة ، فصاحبته

الراقصة نوادر ستأتي غداً في طلبه ، وقد وعدناها بتسليمها اياه غداً ، ليس لنا أن نخلف مواعيدنا مع صديقاتنا يا امي .

قالت الام : سأمضي في انهائه وحدي . اذهبي إلى سريرك وأنت مطمئنة البال . لن انام قبل أن انجزه يا ابنتي .

فأبت الابنة أن تخلد إلى الراحة قبل أن تنهي ثوب الراقصة نوادر قالت :

لا . لن اتركك وحدك . سأمضي في العمل .

وعبثاً حاولت الام اقناع ابنتها ، فقد أصرت نجاة على المضي في العمل حتى الانتهاء من ثوب الراقصة نوادر.

وبدأت خيوط الفجر البعيد تنسج وشاح الصباح والخياطة عفيفة الوردي وابنتها نجاة منصرفتان إلى العمل .

وبدأ النعاس يثقل اجفانها .

فتأففت الام ، وتبرمت وتمتمت : أف لهذه الحياة الملأى بالعذاب . تفرض علينا العمل والشقاء للوصول إلى لقمة الخبز . لو لم نكن مرغمين على دفع اجرة المنزل هذا الاسبوع لما اضطررنا إلى قضاء الليل في العمل .

فهمست نجاة :

– اذهبي إلى سريرك يا امي . سأكمل الثوب وحدي

فانتفضت أم نجاة هامسة :

ــ لا .. سنرتاح الان . أنا وأنت سنذهب إلى سريرينا فنرتاح ساعات قليلة ثم نعود إلى العمل .

وألقت بالثوب من يدها ، ونهضت قائلة : يكفينا تعبا الليلة . انهضي يا نجاة انهضى .

•

وارغمتها على النهوض ، ونهضتا لتدخلا إلى غرفتها وتندس كل منهما في سريرها وتستسلم للرقاد .

وأستغرقت الأم في النوم حتى ساعة متأخرة من الصباح فالتعب أنهكها وهد كيانها .

اما نجاة فقد ابكرت في النهوض من السرير وعادت إلى العمل في ثوب الراقصة . فهي على يقين من أن « الست » نوادر ستحضر في ساعة مبكرة من الصباح لاستلام ثوبها لأنها كما قالت ، عازمة على السفر إلى القاهرة ذاك الصباح لتنفيذ عقد ابرمته مع مدير احد النوادي الليلية .

ولم يخطىء ظن نجاة ، فقد اطلت الراقصة نوادر في الصباح الباكر والابتسامة الزاهرة الزاهية تسبقها .

ووجمت نجاة وهي تشاهد الست نوادر مطلة عليها مع اطلالة الساعات الاولى من الصباح . فالثوب لم ينجز



بعد ، والراقصة نوادر ستثور وتغضب .

وتساءلت الراقصة الحسناء وهي تجلس قرب نجاة :

ماذا يا نجاة ؟ ألم ينته العمل في ثوبي حتى الان ؟

فتلعثمت الفتاة وهي تجيب : صدقيني يا ست نوادر أننا بذلنا قصي الجهد لأنجازه فلم نستطع ، أنا وأمي عملنا طيلة الليل بدون جدوى ولكنني أعدك بانه سيكون جاهزاً بعد ساعتين على ابعد تقدير .

وتوقعت نجاة أن تنفجر ثورة الراقصة الهيفاء وأن تعربد وتولول ، الا أن ظنها خاب ، فقد مضت نوادر في اطلاق ابتسامتها المشرقة . وهمست : لا بأس . الطائرة لن تقلع إلى القاهرة الا بعد الظهر ، لديك الوقت الكافي لانجازه يا صديقتي . وتنفست نجاة الصعداء : الحمد لله ، ثم الحمد لله .. الست نوادر لم تثر ولم تغضب ، وامها لن تفقد « زبونة » .

وتمتمت الراقصة : سأنتظر انجاز الثوب . ولكن الا تقدمين لي فنجان قهوة ؟

— فنجان قهوة ؟ على الرأس قبل العين يا ست نوادر

وألقت نجاة بالثوب من يدها وهرولت إلى المطبخ لتعود بعد دقائق قليلة حاملة القهوة إلى الراقصة الفاتنة

وجلست نوادر ترشف قهوتها على مهل وتدخن .

ودار الحديث بين الراقصة وابنة الخياطة حول الازياء والقماش والعطور والمساحيق .

ثم تطرأ الحـديث إلى العمل المضني المتعب الشاق في هذه الحياة .

فتبرمت نوادر وتأففت من مشقات الحياة واعبائها .

وشاركتها نجاة التذمر والتأفف -قالت : ثقي يا ست نوادر أننا نعمل الليل والنهار ، أنا وامي ، كي نستطيع أن نقوم بالاعباء ، وقد أضطررنا إلى تأجير احدى غرف هذه الدار كي نسدد جزءاً من نفقاتنا .

فتمتمت الراقصة : لماذا لا تعملين يا نجاة في غير هذه المهنة المتعبة . دعي امك تعمل وحدها في الخياطة وأبحثي عن عمل اخر يدر عليك مبلغاً أوفر من المـال

فتساءلت نجاة : ومـاذا استطيع أن أعمل يا ست نوادر ؟

فنفثت الراقصة الحسناء دخـــان لفافتها في الفضاء وهمست : أي عمل يدر عليك مالا . أنت جميلة وذكية يا نجاة . ومن كانت في جمالك وذكائك تسعى الاعمال اليها ، وليست مضطرة أن تسعى هي وراء الأعمال .

فبدأ الاستغراب على وجه ابنة الخياطـة وتساءلت : ماذا عساني أن أعمل وانا لا اجيد سوى هذه المهنة يا سيدتي ؟

قالت : لماذا لا تمتهنين المهنة التي أمتهنها أنا ؟

فدهشت نجاة .وهمست بتساؤل واستغراب : راقصة؟



– اجـــل راقصة . فالله سبحانة وتعالى وهبك كل مواهب الرقص يا نجاة ..

فعادت نجاة إلى التساؤل والدهشة تعقد لسانها : وما هي مواهب الرقص يا سيدتي ؟

فاستوت نوادر في مقعدها وعادت إلى رشف القهوة ونفث دخان اللفافـة لتقول : مواهب الرقص ثلاث لا رابع لها : جمال الوجه ، ورشاقـة الجسم ، والذكاء . جمال الوجه ليجذب القلوب ، ورشاقـــة الجسم لتلفت العقول ، والذكاء لتفريغ الجيوب .

وضحكت نوادر وهـــي تحـــدد وتعدد مواهب الرقص ، وتمتمت :

– ألا يلوح لك أن الله وهبك جميع هـذا المواهب

فصمتت نجاة على تبرم واستياء :

– ماذا تقول هذه الغانية الحسناء ؟ أتريدها راقصة مثلها تقفز وتنط وتتلوى عارية على المسارح أمام الجماهير؟.. مجنونة .

وكأن نوادر قرأت مـــا يجول بفكر ابنة الخياطة فتمتمت : اسمعي يا نجاة . الرقص ليس مهنة الساقطات من النساء كما يلوح لك وللبعض من البشر . الرقص فن مثل سائر الفنون وتستطيع الراقصة أن تعيش شريفة إذا أرادت ذلك . نحن مظلومات يا صغيرتي . كم من راقصة تنعم بشرف أثيل لا تنعم به النساء المحصنات .

فحلت عقدة لسان نجاة لتقول :

– قد يكون ما تقولين يا ست نوادر ، ولكن ..

فقاطعتها الراقصة :

– ولكن ماذا ؟ ..

قـــالت : ولكـــن الناس ينظرون إلى الراقصة بغير المنظار الذي تنظر فيه الراقصة الى نفسها . ثقي يا ست نوادر أن والدتي تفضل ألف مرة أن تراني جثه هامدة على أن تراني أرقص عارية امام الجماهير .

فطفت ابتسامة مكر وخبث ودهاء على شفتي الراقصة

نوادر وهمست :

– وتفضل أيضاً والدتـــك الفقر على الغنى ؟ أليس كذلك ؟

قالت نجاة ،

– الفقر بشرف افضل لدينــــا من الغنى بغير شرف

فهزت نوادر رأسها هزءاً واستخفافا وتمتمت ، المال هو كل شيء في الحياة يا نجاة . والناس لا ينظرون الى مصدر المـال بل هم ينظرون الى وهجه وسحره وجمـاله . كلما كثر المال في جيبك تعاظم وكثر احترام الناس لك،وكلما قل وخف المال في جيبك قل وخف احترام الناس لك

فلاذت نجاة الوردي بالصمت .

وراحت تفكر : الراقصة نوادر على حق ، ولكن القـــيم الانسانية والشرف ، والنبل ، والتقي والضمير ، كلها أشياء لا يمكن التغاضي عنها . كلمة شرف تساوي كل ما في هذا العالم الفاني من ذهب ومال .

واستغرقت ابنة الخياطة في تفكيرها العميق البعيد .

وراحت الراقصـــة نوادر تراقبهــا بطرف خفي وهى تدخن .

وأيقنت نوادر أن العصفور سيقع فى الشرك ، فهي تعلم يقينا أن الانسان عندمـــا يبدأ بالتفكير ينتهي إلى الموافقة . أما نهاية الرفض ، فلا تكون بدايتها الا الرفض

ما دامت قد بدأت بالتفكير فهي واصلة حتما إلى القبول والموافقة على العرض السخي .

•

وطال تفكير نجاة ، فرأت الست نوادر أن تخرج بها عن تفكيرها الممض البارد الكئيب ، قالت : الامر لا يحتاج إلى تفكير يا نجاة . فالعرض سخي ، والمشروع ليس معقدا ولا هـو في غموض ، مهنتك هـذه ، مهنة الخياطة لن تغنيك ، ولا هي تستطيع أن تبعد عنك وعن أمك شبح الفاقـة والعوز . إنهـا مهنة الفقراء البؤساء المتعبـين الكادحين المعذبين على هذه الارض أما مهنتنا نحن ، مهنة الرقص ، فهي الطريق إلى الذهب مهنتك يا نجاة مهنـة التعب والسهر والكد والعذاب ، ومهنتنا مهنة الراحة والسعادة ..

•

وتوقفت الراقصة نوادر عن الكلام لتفسح مجال ابداء الرأي لنجاة .

الا أن نجاة لم تتكلم ولم تبدِ رأيها بما تقول الراقصة الحسناء .

وعادت نوادر إلى نفث الدرر الغوالي ، قالت : كم يحتاج انجاز هذا الثوب من الوقت يا نجاة ؟

وردت نجاة : يومين أو ثلاثة ..

قالت نوادر متسائلة : وكم تتقاضين اجرته ؟

خمساً وعشرين ليرة .

فقهقهت الست نوادر ، يوما عمل وكد وتعب بخمس وعشرين ليرة ؟ .. مسكينة أنت يا نجاة .

ونفثت دخان اللفافة في الفضاء وتمتمت بتساؤل ومكر وخبث :

– أتعلمين كم أتقاضى أنا لقاء نصف ساعة عمل ؟

فقلبت نجاة شفتيها : كم ؟

قالت : ارقص نصف ساعة فقط كل ليلة وأتقاضى ثلاثة آلاف ليرة كل شهر .

ففغرت نجاة الوردي فمها دهشة واستغراباً ، وكأنها لا تصدق ما تقول نوادر .

ولمت الابتسامة الهانئة على شفتي الست نوادر : ألا تصدقين ؟.

فردت نجاة بتساؤل واستغراب :

– ثلاثة آلاف ليرة في الشهر لقاء رقص نصف ساعة كل ليلة .

– أجل .. ثلاثة آلاف ليرة .

– عجيب ... أكاد لا أصدق .

– صدقيني يا نجاة .. وأنت أيضاً ستتقاضين ثلاثة آلاف ليرة إذا وافقت على العمل معي .

قالت نجاة الوردي :

– ولكنني لا أعرف شيئاً من أو عن الرقص .

– ستتعلمين .. اتركي الأمر الي ، أنا سألقنك أصول هذه المهنة الساحرة التي تدر على صاحبتها لبناً وعسلاً .

فتمتمت نجاة بحزم وإصرار :

– لا .. لا .. لن أكون راقصة لن أتعلم أصول الرقص ، لن أرقص يا ست نوادر .

فاقتربت الست نوادر منها تمسك بيدها هامسة :

– هل يخيل اليك إن مهنة الرقص مهنة حقيرة يا نجاة ؟

ولم تجب نجاة ، لم تهمس بحرف ، فمضت الراقصة الفاتنة في حديثها لتقول :

– الرقص فن مثل جميع الفنون الجميلة يا نجاة هو لا يختلف عن الغناء والموسيقى ، والشعر ، والنحت والرسم والتصوير ، والراقصة فنانة موهوبة تستحق التقدير والاحترام .

ومضت نجاة في التفكير دون أن تنبس بكلمة .

ومضت نوادر في المحاولة ، محاولة الاقناع قالت :

– في الغرب تحتل الراقصة مكانة مرموقة . الكل يحترمها ويحبها ويقدرها ويحلها في المجتمع الراقي في أعلى مقام . أنا مثلاً لو كنت في باريس أو في لندن أو في واشنطن ، أو في هوليوود لكنت سيدة محترمة ، تُدعى إلى المآدب الرسمية ، وإلى الحفلات الدبلوماسية .

وكانت نوادر على حق في ما تقول :

فالراقصة في الغرب تتربع من الاحترام والتقدير في أعلى مقام .

ولكن الست نوادر نسيت ، أو هي تناست أن تقول لنجاة الوردي ، إن الراقصة في الغرب لا يحق لها أن تحمل اللقب ، ولا أن تعتلي خشبة المسرح أو تظهر في فيلم ، إلا إذا كانت مثقفة ثقافة عالية ، وإلا إذا درست فن الرقص في أحد المعاهد الفنية الكبرى ، أما راقصاتنا في الشرق ، فهن جاهلات والقليلات منهن يجدن كتابة أسمائهن .

الرقص في الغرب فن ، وفي الشرق شعوذة وتدجيل وعرض جسد عار ونط وقفز وهز ..

وازدادت نجاة الوردي دهشة واستغراباً ، وكلام الراقصة نوادر يقع منها في الأذنين .

وصمتت ، وعادت إلى التفكير : هل يمكن هذا ! هل

يمكن أن تحتل الراقصة مثل هذا المركز المرموق !

وكأن الست نوادر أدركت ما يجول في خاطر ابنة الخياطة فهمست محاولة تبديد شكوكها وظنونها :

– وحياتك يا نجاة هذا صحيح . صديقتك المخلصة الوفية نوادر لا تخدعك ولا تسكب في مسمعك إلا الصحيح من الكلام صدقيني اذا قلت لك انك ستصبحين غنية ، شهيرة محترمة ، اذا قدر لك أن تكوني يوماً راقصة .

فهمست نجاة مازحة : قد أصبح شهيرة غنية ، اذا قدر لي أن أصبح راقصة يا ست نوادر ، ولكن لن أصبح يومذاك محترمة أبداً .

فأسفت نوادر لما تقول نجاة : يا ضياع التعب .. منذ ساعة وهي تفيض بالحكم وبالأمثال محاولة اقناع نجاة ، وقد خيل اليها انها افلحت ووفقت الى اقناعها الا انها كانت كما يبدو على خطأ . فابنة الخياطة لم تقتنع ، وبلاغة الست نوادر وحججها وبراهينها وأتعابها كلها ذهبت أدراج الرياح .

وأبت نوادر أن تستسلم .

أبت أن ترفع الراية البيضاء .

ورأت أن تستأنف الهجوم وتواصل مهمة الاقناع قالت :

– أؤكد لك انك ستكونين محترمة ، سلي مجرباً ولا تسألي حكيماً .. أنا جربت ، واذا كنت أقول هذا فما ذلك

الا لأني جربت ما أقول .

فعادت نجاة الى التساؤل بشك وظن وحيرة :

ــ هل هذا معقول ؟ أيمكن أن تحترم الراقصة يا ست نوادر ، وهي التي تظهر عارية أو شبه عارية أمام أنظار الجماهير ؟

قالت الراقصة الفاتنة :

ــ قلت لك أنا جربت ، وأعرف يقيناً انني محترمة . سأبوح لك بأسراري وأنا أعلم انني أبوح بهذه الأسرار الى صديقة مخلصة وفية تحافظ عليها ولا تسمح لشفتيهــا بأن تفشي سراً واحداً منها .

فتمتمت ابنة الخياطة محرضة الراقصة نوادر على افشاء الأسرار :

ــ ثقي يا ست نوادر أن أسرارك ستنزل في بئر عميقة ليس لها قرار وانها ستصان في صدري .

فلمعت ابتسامة هادئة على شفتي نوادر وهمست :

ــ أتصدقين اذا قلت لك ان ثلاثة وزراء يتزاحمون على قلبي !

ووجمت نجاة : لا .. أنا لا أصدق .

سأبرهن لك ، سأمسك بيدك يوماً وأشخص بك الى قصر الحكم وندخل معاً على الوزير فتسمعين وتشاهدين و .. وتصدقين .

وطفت على شفتي نجاة ابتسامة حائرة .. ابتسامــة

تقول : ما أسمع غريب عجيب ، يهيب بي الى التردد في تصديقه .

وعادت نوادر إلى الكلام :

– وهل تصدقين ان هناك أكثر من عشرة نواب أستطيع أن أجرهم بمكالمة هاتفية الى حيث أريد .. قد لا تصدقين ولكنها الحقيقة يا نجاة .

ونفثت نوادر دخان اللفافة في الفضاء وراحت تراقب أجنحة الدخان المتصاعد من بين شفتيها مرفرفة في الغرفة الصغيرة .

وعادت الى الكلام بعد صمت قصير لتقول :

– مئة خياطة لا تستطيع أن تؤمّن وظيفة لعاطل عن العمل ، وراقصة واحدة تستطيع أن تؤمن مئة وظيفة لمئة عاطل عن العمل ، وتقولين بعد كل هذا ان الراقصة لا تُحترم وهي لا تستطيع أن تتربع على مقام مرموق رفيع .!

فتمتمت نجاة وهي تمضي في غرز الإبرة :

– ما اسمع يا ست نوادر يدهشني ويثير مني الاعجاب فأراني مترددة في التصديق .

قالت نوادر : يوم تصبحين راقصة تتأكد لك صحة قولي .

واذا بصوت يتصاعد . صوت مطرب ينشد أغنيـــة

لينشرها على المسامع ، مذياع في دار الخياطة فهبت الراقصة واقفة متمتمة :

– كم أحب الاستماع الى هذه الأغنية .

قالت هذا ، ووثبت الى المذياع الصغير الرابض في زاوية الغرفة تدير ابرته .

وتعالى صوت المطرب الشجي ، وصدحت الموسيقى ، فانتشت الست نوادر وطربت ، والقت باللفافة من يدهـا وأخذت ترقص على النغمات الشجية والموسيقى المطربة ، والصوت الصدوح .

وأجادت الرقص ، وهي تتلوى وتقفز وتهز خصرهـا وترفع يديها حيناً الى فوق ، ثم تخفضها أحياناً الى تحت وتضحك .

واذا بباب الغرفة المجاورة يفتح ويطـــل منه عصام سلوم ..

ووجم طالب الحقوق وهو يشاهد الراقصة الحسناء تقفز وتتلوى وتميل يميناً ويساراً .

ووقف حيالها على دهشة واستغراب .

وراح يستعرض الراقصة في رقصها المبدع المتقن الجميل .

وأيقن أنه حيال (ابنة كار)

من المؤكد انها راقصة محترفة تجيد الرقص وتتقنه وتلم به كل الالمام ..



وحانت من نوادر لفتة فشاهدت عصاماً يقف محدقاً بها والدهشة تعقد لسانه ، فلم تنقطع عن الرقص ، ولا هي دهشت ولا تعثرت منها الخطى ، بل هي مضت في القفز والالتواء .

وابتسمت الابتسامة الهانئة الحمراء على شفتيها النديتين .

واقتربت منه وهي تلوح له بيديها الاثنتين مشيرة له أن يقترب منها ..

وشاء عصام سلوم أن يلبي الطلب .

وتمنى أن يقترب من تلك الغانية الفاتنة ، الا أن نوادر لم تترك له مجال الاقتراب ، وقد اقتربت حتى أصبحت على مقربة منه .

وتوقفت فجأة عن الرقص .

وحدقت به ، وغرزت عينيها في عينيه وهمست :

– صباح الخير .

ورد طالب الحقوق : صباح الخير .

وتمتمت : أتحب الرقص !

واحتار بماذا يجيب .

ولمست نوادر حيرته واضطرابه فتمتمت :

– الرقص فن مثل جميع الفنون ، ترتاح اليه القلوب وتهيم في أرجائه الأرواح .

فاكتفى بالهمس : صحيح ..

وابتعدت عنه ، وعادت الى جلستها قرب نجاة لتسألها :

- هل هو أخوك !

قالت نجاة : لا .. هو مستأجر عندنا ينزل في هذه الغرفة .

فهمست نوادر : انه لطيف ..

وشهادة نوادر لها قيمتها ، فهي خبيرة بالرجال ، فشهادتها بألف الف شهادة ..

وارتاحت نجاة كل الارتياح ، وشهادة اللطف بعصام تقع من شفتي نوادر في اذنيها !

فهي تعرف ان عصاماً لطيف ، وقد لمست لطفه ووقفت على تهذيبه وأخلاقه العالية .

ولم تكن نجاة لتجهل مكمن (اللطف) في عصام سلوم الا أن شهادة نوادر زادتها ايمانا بهذا (اللطف) .

واقتربت نوادر بجلستها من نجاة .

وهمست في أذنها مازحة : اتحبينه ؟

فصبغ الخجل وجنتي ابنة الخياطة ، وسؤال نوادر المحرج ينزل بمسمعها .

واجابت : لا أحبه ولا اكرهه .

فلمع المكر في عيني الراقصة الحسناء .

وتمتمت : وهو ؟ هل يحبك ؟

فقلبت نجاة شفتيها وهزت كتفيها هامسة : لست أدري .

– بلهاء ... أيكون جارك ، يقيم في غرفة من دارك ولا تعرفين إذا كان يحبك أم لا ؟

قالت : ومن أين لي أن أعلم ؟

فاستوت الست نوادر في جلستها .

وأشعلت لفافة نفثت دخانها في الفضاء لتقول : نحن النساء نستطيع أن نقرأ قلوب الرجال . للرجال قلوب مشرعة النوافذ والابواب يا نجاة ، ليس عندهم أسرار . وأسرارهم على شفاههم ، وخفايا قلوبهم تطل من عيونهم نستطيع أن نقرأ كل ما في قلوبهم من سطور . أما هم فلا يستطيعون أن يقرأوا حرفاً واحداً من كتب قلوبنا ذلك لأن قلوبنا صناديق حديدية مقفلة ، تستطيع المرأة أن توهم مئة رجل بانها تحبهم . وهي في الحقيقة لا تحب أحداً . أما الرجل فلا يستطيع أن يخدع امرأة واحدة بالحب لأن للمرأة قوة خفية تتمكن بواسطتها من كشف حجب القلوب واسرار الارواح ، أنت مثلا . تستطيعين أن تعرفي خفايا قلب هذا الشاب وأن تقفي على كل ما يضمر لك .

فدهشت نجاة لما تقول نوادر .

وتساءلت : كيف ؟ .

قالت : (ولو ..) تسألني كيف ؟ .. انظري إلى عينيه تقفي على ما يدور في فلك قلبه . من عينيه تقرئين

سطور الحب في قلبه .

فصمتت نجاة .

وأنصرفت إلى التفكير : صحيح ... لماذا لا تجرب؟.
يجب أن تقرأ ما يجول في قلب عصام سلوم .

وعادت نوادر إلى الكلام بعد صمت قصير لتقول
باستغراب :

أنا لا أستطيع أن اصدق أن هناك فتاة وشاباً يعيشان
معـا ، في بيت واحد ، وتحت سقف واحد ولا ينسج
الحب خيوطه الدقيقة المتينة بين قلبيهما .

فما كان من نجاة الا أنهـا بددت استغراب نوادر
وشكوكهـا بقولهـا : لم يمض على نزوله بيننا سوى ايام
قليلة . قد أستطيع أن أقف يوماً على ما يضمر لي .

قالت نوادر : متى؟ .. بعد عمر طويل ؟ . اسمعي
يا نجاة خير البر عاجلة . ما تستطيعين أن تفعليه اليوم
افعليه دون ابطاء . لا تؤجلي عمل اليوم إلى الغد

فهمست نجاة الوردي : سأجرب أن أعمل بنصيحتك
الغالية ، يا ست نوادر .

وإذا بأم نجاة تطل عليها ، وقد أيقظتها الموسيقى
الصاخبة المنبعثة من المذياع .

ودهشت ، وهي تشاهد الراقصة نوادر .

ووثبت اليها تصافحها على خجل واعتذار : لم نستطع

أن نفي بوعدنا لك ، يا ست نوادر ، وننجز ثوبك في الموعد المحدد . ارجو المعذرة .

فانسمت الابتسامة الهادئة على شفتي نوادر .

وهمست : لا بأس ، باستطاعتي الانتظار والثوب أصبح ، بفضل نجاة على أهبة الانتهاء .

وجلست عفيفة الوردي قرب ابنتها ، وراحت تساعدها في العمل . في حين انصرفت الراقصة الحسناء إلى التدخين وإلى مسايرتها .

ولم تنتظر نوادر طويلا .

فقد استطاعت الام والابنة أن تنجزا ثوب الراقصة الجميلة في قليل من الوقت ..

ودفعت عفيفة الوردي بالثوب الجميل إلى الراقصة هامسة : مبروك ..

ونقدتها الراقصة الاجرة .

وودعتها .

ولم تنس أن تشد يد نجاة ، وهي تصافحها مودعة

وهمست : لا تنسي أن تعملي بنصيحتي يا نجاة . سلي مجربا ولا تسألي حكيما ، وأنا جربت ، ونصيحتي لك نصيحة امرأة حاذقة ، جربت وتعلمت وخبرت .

وجلست نجاة تفكر بكل ما قالت نوادر .

راحت تفكر بمهنة الرقص ، التي تقربها من الوزراء

والنواب والرجال العظام .

والتي تنثر الذهب بين يديها .

والرقص – كما قالت نوادر – ليس عيبا . انه فن مثل جميع الفنون ..

والتي تمتهن الرقص فنانة ، والفنانة محترمة مقدرة كريمة شريفة غنية ، ثرية شهيرة .

ولكن ...

وعادت كلمة (ولكن) تتمايل في خاطرها وتتراقص في ذهنها ...

هل ترضى والدتها عنها إن هي اتخذت من الرقص مهنة لها ؟ ..

من المؤكد أنها لن ترضى ، وهي ستثور وستغضب وتهدد وتتوعد ...

اذن .. لا كان الرقص ولا كان الذهب ، ولا كانت صداقة الوزراء والنواب والرجال العظام .

وفيما نجاة غارقة في تفكيرها ، وأمها منصرفة إلى العمل في ثوب اخر ، أطل عصام سلوم وقد ارتدى ثيابه وهمّ بالانصراف إلى عمله .

وإذا بالخياطة أم نجاه تثب اليه قائلة : أتنصرف يا عصام قبل أن تتناول قهوة الصباح ؟

وأجاب : شكراً لك يا سيدتي على ما تبدين نحوي من اهتمام ...

فقطعت عليه الكلام لا ،، لن تذهب قبل أن تتناول القهوة .

ولم تنتظر منه جواباً ، بل هي التفتت إلى ابنتها قائلة : اسرعي يا نجاة في تهيئة القهوة . أسرعي يا ابنتي ، اسرعي .

واسرعت نجاة ...

وعادت بعد قليل حاملة القهوة .

وتذكرت نصيحة الست نوادر : (... أنت تستطيعين أن تعرفي خفايا قلب هذا الشاب ، وأن تقفي على كل ما يضمر لك ،،، أنظري إلى عينيه تقفي على ما يدور في فلك قلبه . من عينيه تقرئين سطور الحب في قلبه ..)

ورأت ابنة الخياطة أن تعمل بنصيحة الراقصة الخبيرة في فنون الحب وأسرار الهوى والغرام . فتقدمت من طالب الحقوق حاملة له القهوة .

وهمست ، وقد وقفت أمامه :

– تفضل أيها السيد عصام .

تفضل ...

وغرزت عينيها في عينيه ..

وتشابكت العيون الاربع في نظرة عميقة ، سحيقة هائمة ، حيرى ، لها ألف لون ولون ، وألف معنى ومعنى وألف شكل وشكل .

واندلعت النار من العيون الاربع ، الى القلبين ،

ومع النار سطع الوميض فاختلج القلبان .

وارتجفت نجاة ، واهتزت حتى كادت القهوة تسقط من يدها .

وسلخت ابنة الخياطة عينيها عن عيني طالب الحقوق وهي ترتجف كأنها ورقة صفراء تتلاعب بها رياح الخريف العاتية الهوجاء .

ووجمت :

وهمست في سرها مخاطبة نفسها : (ماذا فعلت يا نجاة ؟ ماذا فعلت ؟ ..)

ولعنت نوادر ، ونصائح نوادر ...

لولا نصيحة نوادر لما وقع ما وقع ، ولما حصل ما حصل .

صحيح أنها قرأت في عيني عصام سلوم آيات الحب وأسفار الهيام ، ولكن عصاماً قرأ أيضاً في قلبها مـــا قرأت هي في قلبه .. لقد خدعتها نوادر . قالت لها : (إن قلوبنا نحن النساء صناديق حديدية مقفلة لا يستطيع الرجال اقتحامهـــا ولا هم يقدرون على قرأة سطورها) فإذا بها تكتشف الآن ان قلبها مشرع الابواب مفتوح النوافذ بـلا سقف ولا جدران ولا مفاتيح ولا أقفال .

واضطربت ، ووجمت ، واحتارت ، فهي لا تدري ماذا عليها أن تفعل .

مرت كل هذه الاحداث والافكار في لحظات قليلة ، كانت لدى الاثنين ، لدى عصام ونجاة كالدهور والاجيال .

فقد شعر الاثنان في هذه اللحظات القليلة انهما اجتازا مسافات شاسعة بعيدة واسعة الرحاب .

شعرا انهما قفزا من ضفة الى ضفة ، من كوكب الى كوكب ، من شاطىء الى شاطىء ، من عالم ناء الى عالم قصي بعيد بعيد ...

وهمست ، وهي تعود الى تقديم القهوة له .

– تفضل يا عصام .

هكذا (يا عصام) ..

منذ قليل نادته (أيها السيد عضام) .

أما الان ، وبعد هبوب العاصفة ، واجتياحها القلبين فهي تناديه . (يا عصام ..) .

وبيد مرتجفة واهية تناول طالب الحقوق فنجان القهوة هامساً : شكراً يا نجاة ...

وخرج اسم « نجاة » من بين شفتيه كأنّةّ الناي الجريح ونزل الاسم الشجي في اذن ابنة الخياطة « كالآه » بل هو نزل في مسمعها كتغريد عصفور شجي .

وطربت لرنة اسمها المنطلقة من شفتي عصام سلوم فهي المرة الاولى التي يناديها بلا لقب . انها المرة الاولى التي يتخلى بها عن لقب « انسة »



كان يناديها باحترام « ايتها الانسة نجاة » فلم تكن لتطرب ولا لتنتشي ولا لتضيع ، فما بالها الان تضطرب وتطرب ، وتحن وهو يناديها بلا لقب ؟

وتحاشت نجاة أن تقع عيناها في عينيه بعد ان هزتها نظراته ، واشتعلت النار في قلبها الندي الطهور ، امـا عصام فقد راح يحدق بها كأنه يريد ان يجني غمار الهوى والشوق والحنين من وجهها الطافح بالطهر والبراءة والعفاف .

وجلسا ... وراحا يرشفان القهوة بصمت بارد كئيب

انه الصمت الذي يسبق العاصفة العاتية الهوجاء .

وأنتهى عصام من قهوته فهمس : شكراً .

ولم ترد نجاة ... بل هي اكتفت بنظرة عميقة ملتهبة رمقت بها طالب الحقوق .

وتولت امها الرد ، فتمتمت ، وهي لا ترفع نظرها عن الثوب الذي تخيطه : ليس ما يدعو إلى الشكر ، يا ابني ، ونحن لم نقم حيالك بسوى الواجب المفروض .

ونهض عصام مودعاً . فقد حان موعد عمله ، وعليه أن يشخص الى مكتب « البيك » .

وسار نحو الباب ، فلحقت نجاة به ، كأن ثمة ما يجذبها الى اقتفاء خطواته .

وهمس ، وهو يتخطى عتبة الباب :«الى اللقاء يا نجاة»فتمتمت ، رافقتك السلامة يا عصام .

ووقفت امام الباب تشيعه ، حتى غاب عن نظرها في الشارع الطويل البعيد .

وعادت نجاة لتجلس قرب امها وتنصرف الى مساعدتها في خياطة الثوب . والسعادة تغمر قلبها وترفرف باجنحتها البيضاء حول روحها .

لقد كانت نجاة الوردي سعيدة ، كانت تتربع على

قمة السعادة ذاك الصباح ، هي لم تشعر مرة في حياتها بمثل هذه السعادة الوارفة المخضلة الجناح ، فكأن الحب الذي تسلل الى قلبها أضاء ذلـــك القلب الطهور بنوره البهي ، وغمر ارجاءه بالضياء .

والسعادة التي غمرت قلب نجاة ، غمرت ايضاً قلب عصام . فقد شعر طالب الحقوق ، وهو يجتاز الطريق الى مقر عمله ، بأنه يسير على الرياحين والورود ، شعر بأن الدنيا تضحك له ، شعر أن نوراً هائلاً ساطعــاً جميلا وارفاً يغمر حنايا قلبه وروحه .

وهمس في سره : كم هي جميلة هذه الحياة انها لعلى افترار ثغر وابتسام شفاه .

جميلة ؟ .. الحياة جميلة ؟ ..

اجل ، الحياة جميلة ، للسعداء ، وهي باسمة للباسمين . امــا أولئك التعساء فالحيــاة شقاء في عيونهم ، وهي ظلام دامس ، تلوح لهم باكية منتحبة شاحبة الوجه من خلال دموعهم .

فكأن الحياة مرآة نفوسنا نرى فيها انعكاس آلامنا ودموعنا ، وافراحنا وابتسامـــاتنا . نرى فيها دموعنا عندما نبكي وابتساماتنا عندما نبتسم .

وادرك عصام سلوم أن الحب غمر قلبه وروحـــه بالسعاده ، فهمس كم أنت جميل ايها الحب ، انك لفاتن

رائع حلو المذاق .

غير ان عصاماً جهل أن الحب حلو ومر ، فهو درهم عسل على قنطار من الحنظل...

***

ووصل عصام الى مكتب «البيك » على فرحة طلقة ، وهناءة بعيدة المدى ، وسعادة عميقة القرار .

وانصرف الى عمله وهو يفكر بنجاة .

ولاح له وجهها الصبيح مبتسماً له ، وتراءت له نظراتها الحالمة اللاهبة في الاوراق المتناثرة بين يديه .

ورنّت همساتها وكلماتها الشجية في مسمعه من خلال طرقات اصابعه على الآلة الكاتبة .

وانقضت الساعات على سرعة واندفاع وعصام لا يشعر بسرعتها واندفاعها ، فهو في غفلة عن الثواني والدقائق والساعات .

وحان موعد الانتقال الى الجامعة ، فحمل عصام دفاتره وكتبه وانتقل من مكتب الاستاذ جابر العواد الى كلية الحقوق.وانتقل معه طيف نجاة ...

ولاحقته همساتها ، وابتساماتها ، ونظراتها فاستسلم للرؤى والاحلام ، وهي رؤى فاتنة واحلام باسمة سمحاء .

وما أن انتهى الاستاذ من إلقاء المحاضرة حتى هرول طالب الحقوق مسرعاً الى دار عفيفة الوردي والشوق الى نجاة يحمله على اجنحته البيضاء، ووصل إلى الدار فاذا بنجاة تستقبله ، والابتسامة تطفو على شفتيها النديتين .

وهمست وهي تصافحه : كنت اقيم منك على انتظار وتمتم : الشوق أحرق قلبي اليك .
ووثبت أم نجاة اليه ترحب به متسائلة : اراك تعود في ساعة مبكرة إلى غرفتك يا ابني ؟

قال : ليس لي في بيروت من ازوره وأضيع وقتي الثمين عنده إنني طالب حقوق يا سيدتي ، وعلي أن أجهد واكد واتعب كي اصل إلى البراءة المنشودة .
فهمست عفيفة الوردي بارتياح رحيب : فليرض الله عليك يا ابني . اولاد الحرام كثيرون في المدينة ، أبعدهم العلي القدير عنك وانقذك من شرورهم واثامهم . عودتك الى الغرفة تواً من الجامعة خير لك ولنا ولأهلك ولمستقبلك

وشكرها عصام على نصائحها وإرشادها ، ودخل إلى غرفته وهو يرمق نجاة بنظرات الهوى والحنين .
وجلس في غرفته يدرس ، ويراجع ما جاء في محاضرة الاستاذ من اجتهادات وقوانين الا أنه لم يستطع أن يستغرق طويلا في الدرس ، فهو قد جنح بتفكيره إلى

حبيبته نجاة .

نجاة الوردي ملكت فؤاده واحتلت من قلبه الصميم . إنهـا الفتاة الاولى الـتي تتلاعب بعواطف عصام سلوم ، لم تستطع فتاة قبلها أن تسيطر على عاطفة ابن ابي عصام ولا أن تصرفه عن دروسه وواجباته .

إنه الحب الاول ، هذا الحب الطاهر البريء . البعيد كل البعد عن اهواء الجسد ورغبات التراب .

وكان تفكير عصام سلوم وهـــو جالس في غرفتـه وكتاب الحقوق بين يديه يقرأ ولا يفهم ما يقرأ ، يطالع ما في ذلك الكتاب ولا يدرك ما يطالع .

ومضت ساعات طويلة على جلسة طالب الحقوق النجيب وانصرافه إلى الغوص في احلامه الوارفة وامانيه العذاب

ولفَّ السكون دار الخياطة عفيفة الوردي ، وقـــد انتصف الليل وعصام جالس يفكر بنجاة ، ونجاة على مقربة منه لا يفصل بينها وبينه سوى الجدار القائم بين الغرفتين

وبـدأ الفجر البعيد يتأهب للبزوغ،والكرى بعيد كل البعد عن عصام فهو لا يشعر برغبة في الاستسلام لسلطان الكرى .

ونهض ، وسار باتئاد الخطى الى الباب يفتحه ويخرج على مهل من الغرفة ، لئلا يوقظ نجاة وأم نجاة .

واتجه إلى الشرفة فهو يريـــد أن يتنسم نسيم الفجر العليل ويرتاح من عناء الدرس الطويل .

*

ووصل الى الشرفة ليقف على دهشة ووجوم فقد كانت نجاة هناك على الشرفة ، واقفة تحـــدق بالفضاء وتراقب النجوم وتفكر .

كانت نجاة مثله ... كانت تفكر به ، كما كان هو يفكر بها . فكأنهما على اتفاق في الحنين ، والعاطفة ، والشعور والتفكير .

والتقيا على الشرفة في هـدأة الليل الصامت الساكن كأنهما على موعد .

فالحب يجمع بين الارواح ، ويقرب بين القلوب .

ويوم يحب الانسان على هـذه الارض الفانية ، تهيم روحه في مجاهل الحياة واسرارها لتلتقي مع روح الحبيب .

فالأرواح هي التي تحب ، وهي التي تهوى ، وهي التي تعطف وتحن وتبتسم وتبكي .

لم يـكن عصام سلوم على موعـد مع حبيبته نجاة في تلك الساعة من الليل على الشرفة ، الا أن روحه وروحها كانتا على موعد فاقتادتا الجسدين دون أن يدركا ولا أن

يعلما ولا ان يريدا ، الى الشرفة الهاجعة بين احضان الليل البهيم .

وهمس عصام وهو يشاهد نجاة في وقفتها الحالمة : نجاة ! ما أتى بك في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل الى هنا ؟

فتمتمت : لست ادري يا عصام . لعل الشوق الذي أتى بك الى هنا هو نفسه أتى بي .

قال : غريبة هذه الحياة باسرارها ، فنحن نفعل ما تريد دون ان نريد . ونحقق امالنا دون نسعى الى تحقيقها .

قالت : ذلك لأن ارواحنا هي التي تقودنا في طريق الحياة يا عصام .

فاقترب منها هامساً : ليس لدي اشهى من الوقوف معك على هذه الشرفة يا نجاة ، يلفنا الليل باجنحته السوداء ، ويتأهب الفجر ليسكب علينا انواره الوردية الزاهية الباسمة . أترى لديك ما هو اشهى واجمل من الوقوف معي هنا يا نجاة .

فتمتمت ، ما تحسّه أُحسّه يا عصام ، وما تشعر به أشعر به ، شعورك هو شعوري ، وحنينك هو حنيني وتفكيرك تفكيري .

أنا وأنت لم نلتق هنا ، بجسدينا فحسب يا عصام بل التقينا بروحينا ، ومن يدري متى ، قد نكون التقينا

منذ دهـور واجيال . قبل أن نولد ، وقبل أن تلبس روحانا جسدينا .

فهمس الارواح العاشقـة تهيم في الفضـاء حتى تلتقي بعشاقها . والروح المحبة تبحث عن جسد تتخذه مسكناً لها كي تستطيع أن تلتقي بروح محبوبة في جسد آخر تكون تلك الروح قد اتخذته مسكناً لها .

قالت : وقد اطربها بيانه وراقها تحليله للحب وللمحبين : أية قيمة اذن لهذه الاجساد يا عصام ما دامت الارواح التي تحتلها هي التي تقرر مصيرها .

قال : الاجساد هياكل الارواح ، وعلى الانسان الذي هـو روح وجسد ، ان يحفظ جسده طـاهراً نقياً كي يكون اهلاً لحـلول الروح الطاهـرة النقية فيه . الروح والجسد شريكان، وهما رفيقان على هـذه الأرض ، وعلى كل منهما ان يسعى لأسعاد رفيقه . حتى اذا حان موعد الانفصال تعادلا في جني الارباح ، فلا يكون ثمة رابح وخاسر .

قالت مازحة : أنت فيلسوف ، تحمل شهادة الفلسفة وتعلم من اسرار الحياة اكثر مما اعلم . قد تكون على حق يا عصام في ما تقول .

فهمس: اسرار الحياة عميقـة بعيدة شاسعـة ، غامضة رهيبة. ليس ثمة من يستطيع حل رموزها يا نجاة ، ولعلّ

الفلاسفة الذين يخيّل اليهم انهم يعرفون الكثير من هـذه الاسرار لا يعرفون شيئاً ، لأنه كلما توغل الانسان في مجاهـل الحياة ازداد عمياً ، ونحن نرى أن الرسل والقديسين والائمة الأبرار الذين اكتشفوا بعض اسرار الحياة هم من البسطاء السذج الذين لم يصلوا الى الشهادات ولم يتعرفوا إلى البراءات .

فتمتمت : « سبحانك اللهم تخفي اسرارك عن الحكماء وتظهرها للبسطاء المتواضعين .. »

قال : إذا اردنا أن نكتشف بعض اسرار الحياة ، علينا ان نبتعد عن البحث والتنقيب وأن ننظر إلى هذه الحياة نظرة ساذجة ، بريئة ، فلننظر إلى الطبيعة نر فيها اسراراً تُكشف واحاجي تحل ، الطبيعة يا نجاة ظل الله نستطيع أن نشاهده سبحانه وتعالى من خلال غصن نضير وأن نرى وجهه النوري البهي ، في جدول رقراق ، وأن نتشق شوقه الينا . وشوقنا اليه ، في نفحة اريج تفوح من زهرة متواضعة صغيرة يتلاعب بها النسيم العليل على ضفة غدير طروب ، ونستطيع أن نسمع صوته عز وجل من خلال زقزقة عصفور يتنقل من غصن رطيب إلى غصن وارف ظليل . كل ما في هذه الطبيعة يمجد الله يا نجاة ويدفعنا إلى الوقوف وقفة الرهبة والخشوع .

قالت : بيانك ، فيه الكثير من الحقائق يا عصام ،

الا أنني مـــا زلت حتى الآن اجهل لماذا يخفي عنا الله سبحانه وتعالى أسرار هذه الحياة ، لمـاذا يدفع بنا إلى هذه الحياة ونحن مغمضو العيون ، ثم يسلخنا عنها ونحن عميان ، لا نعي ولا ندرك شيئاً من اسرار هـذه الحياة

– سنعلم يوماً كل اسرار هذه الحياة .

– متى ؟

– يوم نرحل عن هذه الحياة ، يوم تنطلق ارواحنا إلى الله سبحانه وتعالى . في الساعة الـتي تنفصل فيها الروح عن الجسد تعرف الروح كل شيء اما الجسد فيكون قد عاد إلى التراب ويصبح بغنى عن معرفة هذه الأسرار . نحن على هذه الأرض مسافرون وليس للمسافر أن يعلم ما لا يرى ، وما لا يسمع ، ومـا لا يشاهد. يكفي أننا نحن وأننا نشتاق ، واننا نعلم أن هناك ما وراء الأفق البعيد حياة ثانية تنتظرنا . إن الله عز وجل انعم علينا بنعم كثيرة ولعل اجمل وافضل وأسمى هـذه النعم هي نعمة الحب .

– الحب ؟ .. كلمة هائـلة يا عصام ، لم أكن ادرك معناها حتى تسلل نوره إلى قلبي .

– الحب نار ونور يا نجاة ، نار تطهر القـلوب من ادران الحقد والبغض والأنانية ، ونور يضيء الظلام الدامس الذي يغمر قلوب البشر ، ولولا هذا النور لمـــا استطاع



الانسان ان يقترب من اخيه الانسان ، ولما استطاع البشر كلهم أن يقتربوا من الله ، والروح التي لا تحب لا تستطيع أن تفرح ولا أن تسعد ولا أن تحن ولا ان تشتاق ..

– انك لعلى حق في ما تقول يا عصام . فالشوق لا يتسلل إلى قلوبنا الا من خلال الحب ، والحنان لا يتسرب إلى ارواحنا الا مع ومضات الحب . فنحن لا نستطيع أن نشتاق وأن نحنّ ونتعذب الا من خلال ومضة الحب .

قال مؤيداً : ولا نستطيع ان نبكي ولا أن نفرح ..

– الحب يصقل ارواحنا فتصبح مرهفة ، ويفتح عيوننا على الجمال في كل شيء . فانا لم اكن ارى الجمال في هدأة الليل كما اراه الان ، ولم اكن اشاهد لمعان النجوم الفاتنة السابحة في الفضاء كما اراه الان ، كل شيء جميل في عيني الان ، وكانت عيناي مغمضتين عن الجمال .

وصمت عصام :

وراح يحدق في الفضاء الواسع الرحيب .

وساد الصمت برهة بينهما .

وأمسك عصام بيد نجاة ، فتركت يدها تغفو في يده وهمست : اتحبني ؟

فطفت ابتسامة لامعة على شفتيه . وهمس : تسألينني؟! وكان الأحرى بك أن تسألي نفسك يا نجاة .

– اريد أن اسمع منك الجواب .

فشدت يده يدها وهمس :

– لا تسأليني . انظري إلى هذه النجوم السابحة في الفضاء .هناك نجمة لامعة ساطعة . هناك .. هناك هل تشاهدينها ؟ انها الزهرة نجمة الحب والمحبين . ها هي ترمقنا بنظرة لاهبة متّقدة السعير. سليها يا نجاة ، سلي هذه النجمة التائهة في الفضاء بين مواكب النجوم على حنين وهوى واشتياق ، سليها تقل لك كل شيء ، كل شيء ...

فتمتمت نجاة الوردي ، وهي تحدق بالنجمة اللامعة

البيضاء .

ـ يلوح لي أن هذه النجمة ترمقنا بنورهـا لتخترق قلوبنا وتقف على أسرارنا . انها لتعرف أسرار قلبك يا عصام ، وتعرف اسرار قلبي . فاذا ما وقف النوى بيننا يوماً ، إذا ما فرق الدهر بيننا فأبعدك عني وأبعدني عنك إذا غبت يوماً عن عينيك يا حبيبي سل هـــذه النجمة عني ، فهي تعرف اين اكون وماذا حل بي .

فتجرأ عصام سلوم ، وعـاد إلى الاقـتراب من نجاة ليضمها إلى صدره برفـق وحنان هامساً في اذنها كلمة . كلمة واحدة فقط : « يا حبيبتي .... »

وانتشت نجاة الوردي بالكلمـة الشجية ، واغمضت عينيها ،وغابت في عالم قصي بعيد في الرؤى والامـــاني والاحلام ...

وغرق الحبيبان في يم ثائر طـــامٍ من الهوى والحب والحنين .

ولم يستفيقا من غفوتهما الهانئة الحالمة الا والفجر يكحل مقلة الليل بنوره الوردي الواهي البعيد .

وهمس عصام :

ـ لقد بدأت النجوم تتأهب لـلأفول ونجمتنا الحبيبة نجمة الزهرة بدت شاحبة واهية صفراء ، فكأنها تقف منا وقفة الوداع الأليم .

ـ اطلب معي من الله سبحانـه وتعالى أن يبعد عنا

هذه الوقفة يا عصام .

ـ لا .. الله . سبحانه وتعالى لن يحكم علينا بالفراق يا نجاة ، وهـــو الذي جمع بين قلبينا وربط روحينا بوثيق الهوى المقدس الطهور .

وانسلخا عن بعض .

وعاد عصام سلوم إلى غرفته على نشوة الهوى وحنين الهيام .

ودخلت نجاة إلى غرفتها والحب يعصف بهـا ويغمر قلبها الندي بوارف الظلال .

واندست ابنة الخياطة في سريرها ، لا لتنام بل لتنصرف إلى التفكير بحبيب القلب والروح ، بطالب الحقوق النجيب

●

وكذلك عصام سلوم ، ما استطاع إلى النوم سبيلا فهو قد استلقى في سريره ، لا لينام ، بل ليفكر بنجاة ويستسلم لنشوة الحب الغامرة قلبه بالسنا والضياء .

ومنذ تلك الليلة اتخذ عصام ونجاة من الشرفة الساكنة ، الهادئة مسرحاً يمثلان عليه فصول الهوى ، وادوار الشوق والهيام

الفصل الرابع

انقضى العام الجامعي وطالب الحقوق ، وابنة الخياطة غارقان في هواهما الهانىء الطهور، والخياطة عفيفة الوردي لم تكن لتجهل ما يربط بين القلبين النديين ، بين قلب إبنتها وقلب طالب الحقوق النازل في دارها على الرحب والسعة .

كانت ارملة بديع الوردي تعلم أن العاطفة العارمة الطاهرة تربط بين القلبين ، الا انها كانت تجهل جلوسهما كل ليلة على الشرفة الغارقة في الظلام .

ومن أين للأم أن تعلم أن ابنتها تغتنم فرصة استغراقها في النوم لتخرج إلى الشرفة وتخلو بطالب الحقوق .

وعفيفة الوردي ، شديدة الحرص على الشرف الاثيل والكرامة المثناف .

صحيح انها تريد أن يربط الهوى المقدس بين قلب ابنتها نجاة ، وقلب عصام سلوم ، وتأمل أن « يتم النصيب » فيتزوج طالب الحقوق الذي سيصبح محامياً لامعاً من ابنتها نجاة ، ولكن لا ترضى بان تداس كرامتها ويثلم شرفها ، وتتمرغ سمعتها وسمعة ابنتها بالوحول وغفلت ارملة بديع الوردي عما يدور حولها .

وجهلت ان نجاة وعصاماً سارا في طريق الهوى إلى البعيد البعيد ، فهي مطمئنة إلى تربية ابنتها وإلى حرص نجاة على الشرف والكرامة .

ونجاة وان تكن سمحت لنفسها بان تستغيب امها وأن تخلو بعصام كل ليلة على الشرفة حتى مطلع الفجر وغياب نجمة الحب — فهي لم تسمح لنفسها بأن تتمادى في هواها إلى ابعد من الضمة والقبلة والعناق — ولا عصام طلب منها اكثر من ذلك .

واطمأن الثلاثة ، عصام ونجاة ، وام نجاة .

وسارت الأيام في سرعتها واندفاعها كما يشتهون .

وعندما أطل فصل الصيف بحره اللاهب على بيروت دعا عصام سلوم عفيفة الوردي وابنتها لقضاء اسابيع شهر آب المحرق المحموم في قريته الهانئة الجاثمة في سفوح جبال الأرز على افترار واخضرار .

ولبت الام والابنة الدعوة السمحاء .

وشخصنا مع عصام إلى القرية الباسمة الخضراء ، فهبَّ نجيب سلوم وزوجته ام عصام وبناته الثلاث نسيمة وحليمة وكريمة للترحيب بالضيفتين .

وبالغ ابو عصام في الحفاوة بارملة بديع الوردي وبأبنتها ليرد لهما الجميل ، وهما اللتان احاطتا ابنه عصاما بالعطف والكرم والسخاء .

وازدادت حفاوة ام عصام وبناتها الثلاث بأرملة بديع الوردي وبأبنتها وقد علمن انهما خياطتان تخيطان الثياب الانيقة لنساء بيروت . وأملن أن تخيط الام والابنة لهن الثياب الانيقة .

وكانت عفيفة الوردي وابنتها عند حسن الظـــن فانصرفت خــلال اقامتها في دار ابي عصام إلى خياطـة الاثواب لأم عصام ولبناتها الثلاث ، وقد اختارت لهن الازياء بنفسها ففرحت شقيقات عصام الثلاث بالاثـــواب الانيقة . وتلألأت ام عصام بثوب جديد انيق استطاعت به أن تتباهى وتتعالى على أم درويش زوجة المختار وأن تثير حسدها وغيرتها .

وهذا كل ما ترجو أم عصام وتتمنى وتريد .

ويوم همّت عفيفة الوردي وابنتها بالعودة إلى دارهما في بيروت ، في مطلع شهر ايلول دعتا ام عصام وبناتها إلى زيارتهما في بيروت .

إلا ان ام عصام اعتذرت هامسة : يا حسرتي .. هل استطيع أن اترك القرية وادلف إلى المدينة ؟ وابو عصام على من اتركه هنا .

اما شقيقات عصام فقد تمنين تلبية الدعوة السمحاء وددن لو يسمح لهن والدهن بزيارة الخياطة وابنتها ، حيث ينزل شقيقهما على الرحب والسعة في بيروت .

ولمست عفيفة الوردي رغبة نسيمة وحليمة وكريمة ، فوثبت الى ابي عصام طالبة اليه برجاء أن يسمح للبنات الثلاث بمرافقتها الى بيروت ، الا أن ابا عصام رفض الطلب واعداً بان يسمح لهن بزيارتها خلال فصل الشتاء .

وعادت الخياطة وابنتها الى منزلهما في بيروت ولساناهما ينثران كلمات الشكر والأمتنان في آذان ابي عصام وزوجته وبناته .

وبرّ أبو عصام بوعده ، فما ان أطل فصل الشتاء ، وهطلت الامطار وبدأت الثلوج تغمر حنايا القرية الهانئه الهادئة في سفوح جبال الارز حتى كانت ابنته نسيمة تدلف الى بيروت لرد الزيارة الى الخياطة وابنتها .

وعندما عادت نسيمة الى القرية ، شخصت اختها حليمة .

ثم عادت حليمة لتدلف اختها كريمة ..

ولم تعد كريمة الى القرية الا وقد اصطحبت معها نجاة ابنة الخياطة إلى القرية .

وتأصلت عرى المودة والصداقة والمحبة بين اسرة ابي عصام وبين الخياطة وابنتها .

واشتدت هذه الأواصر تأصلا ووثوقاً فارتاح لها عصام ونجاة كل الارتياح .

وتعاهـــد الحبيبان – عصام ونجاة – على الوفاء والاخلاص والحب والزواج . غداً يوم ينال عصام براءة الحقوق سيمسك بيد حبيبته نجاة ويطير بهـا إلى القرية الخضراء ويقف امام والديه معلناً لهما النبأ المفرح البهيج : «نجاة حبيبتي واريدهـا زوجـة مخلصة وفية . فلتباركنا يمينك يا والدي ، وليغمرنا حنانـــك يا امي ولترافقنا بركتكما مدى الحياة .»

وابو عصام وام عصام يحبان نجاة ، ويرتاحـان اليها ويريان فيها الكنّة المطيعة والابنة الحنون .

وراح الحبيبان الهائمان يبنيان قصور الاماني وشواهق الاحلام والآمال .

وكلما مر يوم اقترب موعد مثول عصام امام اللجنة الفـاحصة وفوزه بالبراءة المرجوة ، ومعنى ذلـك اقتراب موعد العرس البهيج .

*

غير أن الايام تأبى أن تحقق امال البشر ، والاقدار تقضي على احلامهم وتهدم قصور امانيهم العذاب : والقليل القليـل من البشر من يستطيع أن يحصد زرع الامـاني وسنابـل الاحلام ، والسعيد منهم من استطاع أن يحقق النذر الضئيل من الامال والاماني .

وكأن الاقدار ابت أن تحقق امال عصام ونجاة وأن ينفذا ما عزما عليه في الموعد المضروب .

كان قد انقضى الشطر الاكبر من السنوات الاربع التي كتب على عصام سلوم ان يقضيها في الجامعة للفوز بالبراءة فقد مضت سنوات ثلاث. وبقيت سنة واحـدة على عصام أن يجتازهـا ويصبح محامياً ، ثم يصبح عريساً باربعة وعشرين قيراطاً .

غير ان ما حدث في أواخر السنة الجامعية الثالثة من الاحداث عصف بحياة الحبيبين وهز كيان نجاة هزاً .

وماذا حدث ؟ ..

ذات ليلة من ليالي شهر أيار كان عصام قد آوى الى سريره قبل بزوغ الفجر بقليل بعد أن أنهى دروسه .

وقبل أن يستسلم لسلطان الكرى تعالت طرقات على باب غرفته .

وإذا بصوت نجـاة يولول : عصام ! عصام ! ..

عصام ! .. اسرع إلي يا عصام .. عصام أسرع أسرع اسرع .

واستوى طالب الحقوق في سريره على هلع ووجوم : ما بها نجاة ؟ ماذا أصابها ؟ ماذا حل بها ؟ ولماذا تدعوه الى النجدة والاسراع .

ووثب من السرير ...

وإذا بصوت نجاة يعود الى الارتفاع بقلق وخوف واضطراب :

– عصام !. اسرع الي يا عصام اسرع . عصام !. عصام !. عصام ! ..

ووثب عصام الى الباب يفتحه بحيرة وقلق ، فاذا به امام نجاة والذعر يطل من عينيها المغمورتين بالدموع .

وسألها : ما بك يا نجاة ؟ ماذا حدث يا حبيبتي ؟

قالت بصوت تخنقه الدموع : امي .. امي يا عصام لا اعلم ما بها . يخيل الي انها في خطر . انها تتألم آلاماً مبرحة ، وتكاد تغيب عن الوعي .

ووثب عصام الى غرفة الخياطة ، فاذا بأم نجاة ، ملقاة في سريرها ، والعرق البارد يتصبب من جبينها ، وعيناها عالقتان في قبس واه من نور شحيح ضئيل وهي تلهث لهاثاً قوياً ، وتئن انيناً يفتت الاكباد وتهمس من حين الى آخر : « قلبي .. يتقطع .. النار تنهش صدري

والخناجر تقطع رئتي ، أكاد اختنق .. افتحوا النوافذ والابواب .. سأموت .. سأموت .. »

وعاد عصام الى غرفته ليرتدي ثيابه على عجل ، ويسرع الى دار احد الاطباء القريبة من دار الخياطة ..

دقائق قليلة ، وعاد عصام مع الطبيب ..

وقبل أن يدخل الى منزل الخياطة ، سمع النواح والنحيب .

ونزل صوت نجاة في اذنيه مولولة : أمي ! .. أمي ! . أمي ! .

وشاهد الجيران يندفعون نحو منزل عفيفة الوردي والقلق يعصف بهم ، فأدرك إن أم نجاة رحلت عن هذا العالم الفاني .

ودخل الطبيب ... وتبعه عصام ...

واقترب الطبيب من سرير الخياطة ، يجس نبضها ، ويفحص صدرها ليتراجع هامساً :

– مسكينة . لقد قضت ، وانتهى كل شيء .

وسمعت نجاة ما قال الطبيب ، فازدادت نواحاً ونحيباً وصراخاً ، وقد كانت . تأمل أن يعيد الطبيب الى أمها الحياة ، فجاءت كلماته القليلة تقطع عندها كل أمل .

وسأل عصام الطبيب : ماتت ؟

– مـاتت ... ذبحة قلبيـة شديـدة الوطء لم تمهلها سوى دقائـق قليلة . لو كان عشرة أطباء قربها لمـا استطاعـوا أن يدفعوا عنها شبح الموت الرهيب فالذبحة كانت قاصمة هادمة لم تستطع المسكينة احتمالها .

•

وأقيم لأرملة بديع الوردي مأتم حافل ، لم تبخل فيه نجاة بالمال ، فأنفقت على ذلك المأتم كل ما تملك . فهي تريد أن يكون مأتم امها « مفخرة المآتم »

تريد أن ترد لها الجميل ، وهي ترحـل عن هـذا العالم الفاني .

تريد أن تتعزى بانفاق المـال على رحلة تلك الام الطويلة البعيدة الشاسعة .

وعندما شاهدت نجاة أمها محمولة على الاكتاف تخرج من تلك الدار جثة هامدة ، للمرة الاخيرة.

وادركت إنها لن تعود .

شعرت بانها فقدت جزءاً من نفسها ، وقطعـة من روحها وشطراً من قلبها فأغمي عليها .

ورحلت عفيفة الوردي إلى ما وراء الافق البعيد

تاركة لأبنتها الحرقة ، والألم ، والدموع ، والعذاب

واندفع المعزون الى منزل الخياطة الراحلة ، يقدمون لأبنتها التعازي .

وكانوا كثيرون .

فهناك الجيران ، و « الزبائن » اللواتي كانت عفيفة الوردي تخيط ثيابهن ، وهناك الاصدقاء .

وابناء القرية الجاثمة تحت اقدام الارز .

ابناء قرية عصام سلوم ، وقد هرع والده ووالدته ، وشقيقاته وأقاربهم وأصدقاؤهم الى نجاة مؤاسين معزّين .

وإذا بأمرأة رائعة الجمال ، أنيقة ، تفوح من ثيابها وشعرها العطور تثب الى نجاة معانقة هامسة : نجاة ! . تشجعي يا حبيبتي . فالحياة ملأى بالكوارث والمصائب. ليس بيننا من نجا ولا من سينجو من مصائب الحياة .

وازدادت دموع نجاة انسكاباً وهي تسمع كلمات المرأة الفاتنة ،وعادت الحسناء إلى الكلام :

ــ إن تكوني قد فقدت امك ياحبيبتي . فانا سأكون اختك . تستطيعين ان تعتمدي علي في كل ما تريدين وما تحتاجين .

فهمست نجاة : شكراً يا « ست » نوادر .

فالمرأة تلك كانت الراقصة نوادر وقد جـاءت تقدم لنجاة التعازي وتوآسيها في مصابها الموجع الأليم .

•

ومضت ايام قليلة. وبدأ عدد المعزين الوافدين إلى منزل الخياطـــة للتعزية يتضاءل ، وبدأت وطأت الحزن الثقيلة تخف رويداً رويداً ، ولم تجـد نجاة قربها الا عصاماً . الذي كان يغمرها بالعطف والحب والحنان .

وحزن عصام على أم نجاة ، لم يكن بأقل من حزن نجاة ، وقد خسر بأرملة بديـع الوردي عطف الام ، وحنانها ومحبتها . فقد كانت أم نجاة تعطف على عصام ، وتحبه كما تحب الأم ابنها .

ومضى عصام في الدرس والعمل . يدرس ليلاً ويستعد للمثول أمام اللجنة الفاحصة وقد أشرف العام الجامعي على النهاية ، ويعمل نهاراً في مكتب المحامي جابر العواد .

وكانت نجاة تعمل جاهدة ، لتوفر له الراحة والسعادة وهي تعلم يقيناً أن ليس لها في هذا العالم غير عصام بعد أن فقدت تلك الأم الحنون .

وحان موعد الامتحان .

حان موعد مثول عصام سلوم أمام اللجنة الفاحصة في

الجامعة ، وتقدم عصام من الامتحان ، وأقام يرقب النتيجة بفارغ صبر ، فهو يعلم أن رسوبه في الامتحان ، سيكلفه غالياً . يكلفه سنة من عمره ، ويكلفه مبلغاً طائلاً من المال لا يقدر على تسديده .

وعصف القلق بفؤاد عصام سلوم ، وقد خشي أن يكون نصيبه الرسوب ، وهو في السنة الثالثة ، وقد باتت براءة الحقوق على قيد خطوة واحدة منه .

والقلق الذي عصف بفؤاد عصام ، هو نفسه عصف بفؤاد نجاة ، فقد خشيت رسوب حبيبها في الأمتحان ، والرسوب يعني تمديد موعد العرس سنة جديدة .

موعد العرس الآن ، بعد سنة ، بعد ان يفوز عصام بالبراءة المرجوة ، اما إذا كان نصيب عصام الرسوب ، فلن يتم العرس الا بعد سنتين .

واشتد القلق بنجاة الوردي ، وقد لمست بحبيبها عصام الحيرة ، والقلق والاضطراب .

ووثبت اليه تسأله :

— ما بك يا عصام ؟ اراك حائراً قلقاً مضطرب الخاطر ؟ أيكون ثمة ما يقلق يا حبيبي .

— الحقيقة يا نجاة ، هي انني قلق على مصيري ، أخشى أن يكون نصيبي الرسوب في الامتحان .

— اتكل على الله ، سبحانه وتعالى . فليكن ما يريد الله .

— انني لأتكل عليه عز وجل ، في كل ما أقوم به وأقدم عليه .

— وأنا سأصلي من أجلك يا حبيبي ، من أجل فوزك.

وصلت نجاة ...

وفاز عصام سلوم ...

وكان اسمه بين اسماء المتفوقين ، الذين اجتازوا امتحان السنة الثالثة في الجامعة ، بنجاح .

وطار عصام سلوم إلى حبيبته نجاة حاملاً لها البشرى المفرحة السارة .

فابتسمت نجاة ، بعـد أن كادت شفتاهـا تنسيان . شكـل الابتسام فهي لم تبتسم منذ شهرين ، منذ أن رحلت امها عن هذه الحياة .

وامسك عصام بيد حبيبته نجاة قائلاً :

— تعـالي نشخص إلى القرية لنبشر والدي ووالدتي بفوزي .

وحاولت نجاة الاعتراض ، حاولت الرفض ، قالت

— لا يا عصام . أنا لن اخرج من هـذه الدار . هنا سأظل ، حيث كانت امي تجلس وتنام وتعمل ، لن ابتعد عن جوار امي .

— وأنا لن أشخص وحدي إلى القرية ، أما ان نذهب معاً ، أو أن نظل هنا معاً .

— اذهب وحدك ، وعد الي . ستجدني في انتظارك

قال باصرار :

بــــل نذهب معاً . لن يطول غيابنا . فانا مضطر للعودة إلى عملي في مكتب « البيك » . نقضي يومين أو ثلاثة ايام في القرية ، ثم نعود معاً .

فأصرت على الرفض ، وأصر على أن ترافقه. واستطاع بعد جهد أن يقنعها .

•

وشخصا إلى القرية الباسمـــة الخضراء، فهبَّ ابو عصام وامه وشقيقاته الثلاث لاستقبالهـــما بالحفاوة والترحيب ، وخصوا نجاة بوافر الترحيب والحفاوة .

وتمتم ابو عصام : يبدو أن الله ارسلكما الينا . لو لم تصلا اليوم لكنت عندكما غداً .

فتساءل عصام : خير أن شاء الله ؟

قال ابو عصام موجهاً كلامه إلى نجاة :

العقبى لك يا ابنتي. بعد اسبوع يتم زفاف ابنتيَّ الاثنتين حليمة وكريمة في يوم واحد

قالت نجاة : لهما تهاني الحارة . ولكن لمـــاذا يتم

العرسان في يوم واحد يا ابا عصام ؟..

– يا ابنتي أن ولديّ أبي منصور ، منصور وجبور سيتزوجان حليمة وكريمـــة ، منصور لحليمةَ ، وجبور لكريمه ، شقيقان يتزوجان شقيقتين ، وقـد ارتأينا أن يتم العرسان في يوم واحد .

فوثبت نجـاة إلى الشقيقتين تقبلهما مهنئة . ولم تنسَ شقيقتهما نسيمةَ ، فوثبت اليها تقبلها هامسة في اذنها : العقبى لك يا نسيمة .

فتمتمت نسيمة : ولك العقبي يا اختي يا نجاة ..

وانصرفت نجـاة إلى اعداد ثوبي العرس للعروسين ، حليمةَ وكريمة ، وكانت دار ابي عصام تزدحم بابناء القرية وقد زحفوا إلى تلك الدار يشاركون أبا عصام وام عصام الاستعـداد ليوم العرس البهيج . فـالقرية مجتمع يؤمن بالاشتراكية ، ويطبقها بأسلوبه الخاص .

القرية كلها تفرح في العرس ، وكلها تحزن وتبكي في المأتم . العرس في القرية لجميع ابنائها والمأتم ايضاً للجميع

فاذا ما احتفل احد ابناء القرية بعرس ابنه أو شقيقه زحفت القرية كلها إلى داره تشاركه فرحة العرس .

وإذا ما نكب الله داراً في القرية بالحداد ارتدت القرية بأسرها ثوب الحداد .

وقبل أن يطـل يوم العرس بيوم واحد كانت نجاة



تنهي ثوبي العروسين وتهم بالعودة ادراجها إلى بيروت . فهي فتاة حزين ، التراب لم يجف على قبر أمها ، وليس لهـا أن تشارك الناس أفراحهم ، ولا أن تكون في عرس .

غير أن أبا عصام وامه وشقيقاته أمسكوا بها ، وأبو أن يسمحوا لها بمغادرتهم فرأت نفسها مرغمة على النزول عند رغبتهم في البقاء .

وكان عرس الشقيقتين مفخرة الاعراس. وقد اراده ابو عصام عرساً حافلاً رائعاً يتحدث به ابناء القرية ويدوّنه التاريخ ، تاريخ تلك القرية الحافل بالامجاد ..

وتاريخ القرية يدونه أبو درويش ، وهـو رجل نصف أمي ونصف جاهل ، فلا هو بالجاهل ولا هو بالأمي . يدوّن احـداث القرية الجسام في دفـتر ضخم كبير أصفر الاوراق .

وأبو درويش أحد مؤرخي القرى في لبنان . ففي كل قرية من هذه القرى الباسمة الخضراء مؤرخ مثل «أبو درويش» – لا يختلف دفتره الضخم الاصفر الاوراق عن دفتر ابي درويش .

وفي دفـتر ابي درويش «المآثر والروائع» في الاحداث تدونهـا انامله بأسلوبة الخاص ، وبلغته الخاصة « في ٥ تموز ماتت بقرة ابو مرعي غندورة » و . « في ٧ نيسان ولدت مريم زوجة مسعود طفلة تشبه ستها أم مسعود » « في العاشر من حزيران تزوج عبود ابن نعمان من وردية ابنة ابو وردية .. وكان عرسه مفخرة الاعراس .. »

وهكذا يدون المؤرخ أبو درويش حوادث القرية بكل أمانة واخلاص .

وابو عصام طمع في أن ينزل حدث زواج ابنته حليمة وكريمة في دفتر ابي درويش تخليداً لذكرى هـــذا اليوم العظيم ، فكان له ما طمع به .

وجلس ابو درويش في صدر الدار بين المدعوين .
– والمدعوون هم جميع ابناء القريـة – وقتل شاربيه

ورفع كأسه شارباً نخب العرسان الاربعة. وغمز ابا عصام وهمس في اذنه : « سأدون تاريخ هذا العرس العظيم بما يستحق من المديح والاطراء يا ابا عصام » .

فلمعت البسمة على شفتي ابي عصام وتمتم : « ارجو أن لا تنسى والد العروسين ابا عصام يا ابا درويش ، وأن تذكر اسم أم عصام بالخير . قال ابو درويش : اطمئن يا أبا عصام ، لن اغفل عن ذكر اسمك ولن انسى ذكر اسم أم عصام .

فوثب ابو عصام إلى الطعام الشهي يقدمه لأبي درويش، فهو يعلم يقيناً أن ثناء ابي درويش عليه وعلى أم عصام في دفتره سيكون على قدر ما يتناول من الطعام الشهي

وفي حين كان ابو عصام وابو درويش منصرفين إلى الحديث ، كان الزجالون يتبارون في وصف محاسن العرسان الاربعة ، وفي كرم وسخاء والدي ووالدتي العرسان .

ولم تنته حفلة العرس ولا المأدبة السخية انتهت في دار ابي عصام – بل انتقل المدعوون من دار نجيب سلوم والد حليمة وكريمة ، مع العرسان الاربعة إلى دار أبي منصور والد منصور وجبور العريسين الكريمين يواصلون الاحتفال بالعرس . فالتقاليد في القرية تقضي أن يُنكب والد العروس ووالد العريس باقامة المآدب واكرام المدعوين

ومع المدعوين انتقل ابو درويش إلى دار ابي منصور ومـا لاقاه ابو درويش في دار ابي عصام لاقاه في دار ابي منصور، وما طمع به ابو عصام طمع به ابو منصور ، ومـا احلام وامال ومطامع ابي منصور بأقل من آمال واحلام ومطامع ابي عصام فهو يأمل ان يدوّن ابو منصور في دفتره تاريخ حفلة زواج ابنيه منصور وجبور ، مع كلمة ثناء على والد العريسين وعلى زوجته المصون . فكان له ايضاً ما اراد .

ذلك لأن ابا درويش مؤرخ عادل حريص على توزيع عدله بكل أمانـة واخلاص على الجميـع ، مع مراعاة الحفاوة التي يلقاها والطعام الشهي الذي يقدم له...

واعجبت نجاة بعرس القرية . ولمس عصام ارتياحها واعجابها فتقدم منها هامساً في اذنهـا سيكون لنا مثل هذا العرس يوماً يا نجاة .

فشعّت الفرحة عينيها وهمست :

ــ إن شاء الله يا عصام .

قال عصام مازحاً :

ــ وسيدون ابو درويش في سجله التاريخي حـدث هذا الزواج السعيد .

واتسعت الابتسامة على شفتي نجاة الوردي. وهمست :

ــ ارجو أن يـكون لأسمينا شرف التدوين في سجل

ابي درويش يوماً يا عصام .

وانقضت ايام العرس ...

وبدأ عصام يستعد للعودة إلى بيروت ، إلى عمله في مكتب النائب المحامي - وبدأت ايضاً نجاة تستعد للعودة إلى دارها في بيروت ، الا أن أبا عصام وزوجته أم عصام ، وابنتهما نسيمة وقفوا دون ما تبتغي وتريد .

قال ابو عصام . لن تعودي قبل انقضاء فصل الصيف يا ابنتي . ستقضين ما بقي من الصيف هنا ، معنا في القرية . وستكونين لدي ولدى أم عصام في منزلة ابنتنا نسيمة .

وأصرت نجاة على العودة مع عصام إلى بيروت ، إلا انها اصطدمت بإصرار ابي عصام وزوجته وابنتهما فلم تستطع أن تخالف الأوامر ولا هي استطاعت أن تتخلص من إصرارهم وإلحاحهم .

●

وعاد عصام وحده إلى بيروت ، وظلت نجاة في القرية، وارتاحت نجاة بعض الارتياح ، وقد ابتعدت عن

جو بيروت ، الزاخر بالضجة والفوضاء ، لا سيما واصحاب الدار يغدقون عليها العطف والحب والحنان .

غـــير أن امها الراحلة ، ظلت تنغص عليها الراحة والهناء اللذين تلقاهما في دار ابي عصام في القرية الباسمة الحالمة الخضراء .

وكان عصام يشخص إلى القريـــة كل يوم سبت ، فيقضي يوم الاحد في القرية قرب نجاة ليعود صباح الاثنين إلى عمله في بيروت .

وأشرف الصيف على الأفول ، وبدأ المصطافون يستعدون للرحيل عن القرى العالية ، إلى المدن الساحلية الدافئة وأطل الخريف بنسيمه البارد ، وبغمامه الدكناء المنتشرة في الفضاء مبشرة باقتراب الشتاء بقرّه وبثلوجه .

وبدأ القرويون ، يجمعون غلالهم ، فيحصدون القمح وينقلونــــه إلى البيادر ، ويقطفون العنب ويحملونه إلى المعاصر .

وانطلق الحطابون إلى الغابات يحطبون وينقلون الحطب إلى الاقبية تحسباً لأيام الشتاء الباردة الزاخـــر بالثلوج والأمطار .

وبدأ الرعاة بالنزوح من الجرود بقطعانهم وقد خشوا أن تدهمهم الأمطار وتقطع عليهم سبيل العودة إلى القرى الساحلية .

وبدت القرية واجمة ساهمة كئيبة ، وقد لفها الخريف

بضبابه وتناثرت اوراق اشجارها في مهب رياح تشرين .

ووثبت نجاة إلى نجيب سلوم مودعة ، وقد عزمت على العودة إلى دارها في بيروت ، وأبت نجاة أن تعود وحدها ، وأصرت على أن تصطحب معها شقيقه عصام نسيمة لتكون سلواها في وحدتها وكآبتها .

ولم يمانع ابو عصام في أن ترافق ابنته نسيمة الانسة نجاة لا سيما ونجاة في مقام ابنته ، الا أنه اشترط أن لا يطول غياب نسيمه إلى ابعد من شهر ، لا سيما وأم عصام باتت وحدها بعد زواج المحروستين حليمة وكريمة وهي لا تستطيع القيام بأعباء المنزل وحدها .

وعادت نجاة إلى بيروت برفقة شقيقة عصام .

ولم تستطع نسيمه أن تبعد ذكرى الأم الغائبة عن فؤاد نجاة ، الا أنها استطاعت أن تؤنس وحشتها وأن تخفف الكثير من ألمها ومن حزنها .

وكان عصام يحيطها ايضاً بالعطف وبالحب والحنان ، ويحاول جاهداً كفكفة دمعها وابعاد وحشة الألم عن قلبها الندي الطهور .

وما عجزت عنه نسيمة ، من إبعاد الحزن عن فؤاد نجاة ، لم يعجز عنه عصام ، فقد استطاع عصام ، بعطفه وبحنانه أن يغدق على قلب الحبيبة الحزين الدفء والراحة والسلام .

ونمت نجاة بهوى عصام سلوم ، وارتاحت لذلك

الحب الطاهر الفضفاض الذي يعصف بقلبها النذي الطهور واطمأنت بعض الاطمئنان وعصام يحيطها بحنانه ويسكب على جراحها الدامية بلسم حبه وعبير هواه .

ونعم الحبيبان المتيمان بهواهما العاطر الفواح العبير ، ولفتهما السعادة الوارفة بوشاحها الفضفاض ، وقد أدركا أن موعد العرس البهيج أصبح غير بعيد عنهما .

فقد ضربا موعداً لذلك اليوم السعيد !

والموعد ذاك كان بعد اشهر قليلة ، ثمانية أو تسعة اشهر على أبعد تعديل ، بعد انقضاء العام الجامعي ، وبعد أن يفوز عصام ببراءة الحقوق .

فعصام بات في السنة الجامعية الرابعة وفي نهاية هذه السنة سيتقدم من الامتحان ، وسيفوز حتماً ببراءة الحقوق ويصبح محامياً . يتولى الدفاع عن البائسين المظلومين .

وستصبح نجاة عقيلة المحامي عصام سلوم المصون .

ويومذاك سيحق لها أن تفخر وأن تتباهى وأن تغفوا على احلام السعادة الباسمة المخضلة الجناح .

وانصرف الحبيبان الهائمـــان إلى بناء قصور الاحلام الشاهقة المنيعة ، وإلى رسم خطوط المستقبل السعيد ، وإلى الغوص في يم الأمال البعيد المدى الفسيح الارجاء ، وقد جهلا أن احـلام البشر هباء منثوراً بين ايدي الرياح ، وأن آمالهم سراب ، كلما اقتربوا منه جـــد عنهم في الأبتعاد .

الفصل الخامس

تألبت الحوادث على لبنان ذاك العام .

انه عام ١٩٤٣ .

عام الانتفاضة الوطنية ، والبذل والعطاء والجهاد .

عام الاستقلال .

وفي ذلك العام ، في تشرين الثاني ، اراد اللبنانيون أن يتحرروا من وصاية الانتداب الفرنسي ، فأقدم المجلس النيابي على تعديل الدستور .

ولم يرق ذلك للمنتدبين الفرنسيين فعمدوا إلى اعتقال رئيس الجمهورية الشيخ بشاره الخوري ، ورئيس الوزراء رياض الصلح وبعض الوزراء ، ومنهم كميل شمعون ، وسليم تقلا ، وعادل عسيران ، وبعض كبار رجال لبنان ومنهم عبد الحميد كرامي ... وركن الوزراء الذين نجوا من الاعتقال إلى الفرار. ولجأ الوزراء إلى بشامون يحتمون

فيها وينشئون حكومة استقلالية رئيسها حبيب ابو شهلا وقائد ثوارها الامير مجيد ارسلان .

وثار اللبنانيون لأعتقال رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء واعلنوها ثورة حمراء على المنتدبين .

وتوحدت الكلمة ، كلمة جميع اللبنانين .

لم تتوحد كلمة اللبنانـــين ، على اختلاف ميولهم ، وأحزابهم واهدافهم ، وطوائفهم كما توحدت ذلـك العام في ذلك الموقف .

وهبت الدول العربية تؤيد اللبنانيين وتناصرهم وتشد إزرهم فاندفع البنانيون في ثورتهم هاتفين بالحرية مطالبين بالاستقلال وبجلاء الفرنسيين المنتدبين عن بلادهم .

وتنادى زعماء البلاد ونوابهـــا إلى عقد الاجتماعات لاتخاذ المقررات الـــتي تكفل الوصول إلى الحرية وإلى اطلاق سراح المعتقلين واعادة الحياة البرلمانية للبلاد .
وأدرك الفرنسيون أي خطر هو خطر هـؤلاء الزعـماء والنواب : على تنفيذ مآربهم فعمدوا إلى مطاردة هؤلاء النواب والزعماء ، فاستطاعو الظفر بالبعض منهم واعتقالهم ومنهـم رئيس حزب الكتائب الشيخ بيار الجميل ورئيس حزب النجادة وزجهم في السجن .

واستطاع بعض النواب والزعماء من الهرب والاختفاء

عن عيون الفرنسيين المطاردين .

وبين هـــؤلاء كان النائب المحامي جابر العواد، واقفل مكتب المحامي العواد ، واضطر عصام سلوم إلى التواري عن عيون السلطات الفرنسية وقد علم أن الجنود الفرنسيين سيعتقلونه ، ما داموا لم يستطيعوا اعتقال سيده النائب المحامي .

ولجأ عصام سلوم إلى كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية وقد ايقن ان كلية الحقوق ستكون المعقل الحصين له وأن الجنود الفرنسيين ان يقتحموا اسوارها .

وهناك في الكلية وجد رفاقة الطلاب يعقدون اجتماعاً سرياً فـانضم اليهم وراحوا يدرسون قضية المشاركة في الثورة . ليس لطلاب الجامعـات أن يتخلفوا عن الجهاد الوطني . ولا أن يبتعدوا عن الاحداث .

وجرت اتصالات بين جامعة الآباء اليسوعيين وبـين طلاب الجامعة الامركية – وهما الجامعتان الوحيدتان في لبنان يومذاك – وتم الاتفاق بـين طلاب الجامعتين على اعلان الاضراب عـــن الدروس والانطلاق في تظاهرة احتجاجيـة صاخبة يجوبون فيها شوارع بيروت مطالبين باطلاق سراح المعتقلين .

ونفذ طلاب الجامعتين القرار فوراً فانطلقت جموعهم

من كلية الحقوق في جامعة الآباء اليسوعيين إلى الشارع .
وفي الشارع كانت هناك تظاهرة نسائية ، ضمت سيدات لبنان وفتياته .

وكانت ايضاً تظاهرة الحزبيين وقـــد ضمت معظم المنضمين تحت لواء الحزبية .

وكانت ثمة تظاهرة رجال الدين . وقد ضمت الكهنة والشيوخ يسيرون جنباً إلى جنب هـاتفين ضد المستعمرين مطالبين باطلاق سراح المعتقلين .

وكانت ايضاً تظاهـــرة العمال ، وتظاهرة التجار ، وتظاهرة المزارعين ، وتظاهرة الصناعيين ، وتظاهرة الصحافيين .
فقد نزل لبنان باسره إلى الشارع متظاهراً مضرباً محتجاً صاخباً غاضباً ثائراً .

لقد اشتعل لبنان ..

وبدأ الفرنسيون يشعرون بهـــول الخطأ الفادح الذي ارتكبوه : وهم يشاهـدون ابناء البلاد يهبون ، كلمـة واحدة ، ويداً واحدة ، وصفاً واحداً . منادين بالاستقلال مطالبين بالافراج عـــن رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء والوزراء والزعماء المعتقلين .
وخشي المنتدبون تفاقم الحال واندلاع نار الثورة الجامحة وهم يشاهـدون الدول العربية جمعاء تهب لنصرة البنانين

ومساعدتهم ودعمهم والوقوف إلى جانبهم .

وإزدادوا خشية وهم يقفون على ثورة المغتربين من اللبنانين الضاربين في مشارق الارض ومغاربها .

والمغتربون اللبنانيون استطاعوا أن يحملوا الدول النازلين، فيها على الوقوف الى جانب لبنان . فاذا بالولايات المتحدة والبرازيل والارجنتين ، وفنزويلا واستراليا وافريقيا تناصر اللبنانيين في مطالبهم وهي مطالب حق وعدالة

أما البريطانيون فلم يكتفوا بالمساعدة المعنوية ، يبذلونها بسخاء للبنانيين الثائرين بل هم اندفعوا إلى المساعدة المادية يبذلونها بسخاء واسراف في سبيل نصر اللبنانيين على الفرنسيين ، لا حباً باللبنانيين بل انتقاماً من الفرنسيين الذين كانوا ينافسونهم على الزعامة في الشرق الأوسط

ويومذاك كان النفوذ البريطاني قد بدأ يتقلص ، وينكمش في الشرق العربي ، وقد بدأوا يستعدون للجلاء عن مصر وعن فلسطين وعن العراق والاردن .

فلماذا يجلون هم عن مناطق نفوذهم في الشرق العربي ويبقى الفرنسيون في لبنان ؟ .

وكان الجنرال ديغول في الجزائر ، والنفوذ والحكم في لبنان يومذاك للديغولبين ، فقلق شديد القلق وقد لمس الخطأ الفادح الذي ارتكبه ممثلوه في لبنان ، وأيقن أن اللبنانيين على حق في ما يطالبون .

والجنرال ديغول كان يحب لبنان ، واللبنانيين ، ويأبى أن تمتد يد مسيئة إلى لبنان حتى لو كانت هذه اليد فرنسية ، فأوفـــد الجنرال كاترو إلى لبنان لتسوية الأمر بين اللبنانين والمتندبين الفرنسيين .

ووصل الجنرال كاترو إلى بـيروت ليقف على دهشة ووجوم ، وهو يلمس هول الجريمة التي ارتكبها المتندبون واضحة المعالم في الثورة المندلعة النار .

وأسرع الجنرال كاترو في طلب رئيس الجمهورية الشيخ بشاره الخوري .

وشخص ضابط فرنسى ليلا ، إلى قلعة راشيا ليقابل رئيس الجمهورية اللبنانية ويطلب اليه مرافقته .

ووجم الشيخ بشاره الخوري وهـــو يشاهد الضابط الفرنسي يدعوه إلى مرافقته ليلا . وخشي أن يكون المتندبون قد دبروا مؤامرة لأغتياله أو لأبعاده عن لبنان

وسأل الضابط الفرنسي ، إلى اين ؟

ولم يجب الضابط بحرف . بل هو خرج من الغرفة ليترك للرئيس مجال ارتداء ثيابه .

وارتـــدى الشيخ بشاره الخوري ثيابـه ، وفي راسه يدور ألف سؤال وسؤال : ترى إلى اين سيسير به هذا الضابط الفرنسي ؟

وعـــاد الضابط الفرنسي بعد قليل ليقول : تفضل

برافقتي يا فخامة الرئيس .

وكانت كلمة « فخامة » الـــتي تلفظ بها ذلـــك ، الضابط قبساً ضئيلاً اثار الأمل في قلب رئيس الجمهورية .

وسار الشيخ بشاره برفقة الضابط الفرنسي إلى سيارة كانت تقف امام القلعة فانطلقت السيارة بهما طاوية تلك الوهاد والربى والسفوح .

وفي الطريق اعاد الشيخ بشاره الخوري السؤال : إلى اين ؟ .

ورد الضابط : إلى بيروت يا صاحب الفخامة .

واطمأن الشيخ بشاره بعض الاطمئنان ، وهو يلمس في كلام الضابط الفرنسي الأحترام والتقدير .

ووصلت السيارة بهما إلى بيروت ، واتجهت إلى دار فخمة قديمة في محلة « الخندق العميق »

وهناك في تلك الدار ادخـل الضابط الفرنسي رئيس الجمهورية اللبنانية إلى قاعة فسيحة ، فاخرة الرياش وتركه ليخرج ويوصد الباب وراءه .

وعـــادت الشكوك والظنون تتلاعب بتفكير الشيخ بشاره : ترى لماذا جاؤوا به إلى هذه الدار ؟ ..

وماذا يريدون منه ؟

وماذا ينتظره هنا من المفاجئات ؟

دقائق قليلة وفتح الباب ليدخل الجنرال كاترو ، ودهش

الشيخ بشاره الخوري وهو يشاهد القائد الفرنسي الكبير

وازدادت دهشته وهو يشاهد الجنرال كاترو يصافحه بحرارة واحترام ، ويدعوه إلى التفضل بالجلوس قربه .

وجلس الرجلان الكبيران .

وبادر الجنرال كاترو رئيس الجمهورية اللبنانية بالاعتذار عما حدث ، واوضح له أن الجنرال ديغول أوفده من الجزائر إلى لبنان ليصلح الهفوة الكبيرة التي ارتكبها المفوض السامي الفرنسي في بيروت .

وأبدى الجنرال كاترو استعداده التام لأصدار الأوامر بإخلاء سبيله وسبيل جميع المعتقلين ولكن بشرط ..

وتساءل الشيخ بشارة : ما هو هذا الشرط يا سعادة القائد .

قال : بشرط أن تتخلى عن رياض الصلح ، فتقيل الوزارة وتشكل وزارة جديدة تكون برئاسة أي رجل غير رياض الصلح .

وطفت ابتسامة هادئة صفراء على شفتي الشيخ بشاره وهمس : لا ... لن أتخلى عن رياض الصلح . إما أن نعود معاً واما أن نظل معاً في الأعتقال .

وساد الصمت برهة في القاعة الكبيرة بين الرجلين الكبيرين ،

وعاد الجنرال كاترو إلى الكلام بعد صمت قصير

ليقول : هناك اقتراح أخر يا صاحب الفخامة .

قال : الرئيس الخوري متسائلاً : ما هو ؟

فرد الجنرال : أنت تعلم يا فخامة الرئيس أنه يجب المحافظة على الكرامة الفرنسية ، لذلك فأنا اقترح أن تصدروا بياناً وتذيعونه على الشعب تبدون فيه أسفكم وأسف حكومتكم وأسف المجلس النيابي اللبناني لتمديله الدستور ثم يطلق سراحكم جميعاً وتعودون إلى مناصبكم كلكم فور إذاعة هذا البيان .

فقـال الشيخ بشاره الخوري بكل جرأة واعتداد : المذنب هـو الذي يتحتم عليه ابداء الأسف والاعتذار ، فاذا كان ثمة من يتوجب عليه الاعتذار فهومن أمر باعتقالنا يا سيادة الجنرال .

وصمت الجنرال : رئيس الجمهورية اللبنانية على حق ، فإذا كان هناك من يجب عليه الاعتذار فهو المفوض السامي الفرنسي الذي اساء إلى اللبنانيين جميعـاً باعتقـاله رئيس الجمهورية ، ورئيس الوزراء والوزراء ، واوقع الفرنسيين في هذه الورطة .

ودعا القائد الفرنسي رئيس الجمهورية إلى تناول طعام العشاء معه .

وتناول الرجلان طعام العشاء ، ثم ودع الجنرال الشيخ بشاره وخرج ، ليدخل الضابط الفرنسي متمتماً : تفضل

برافقتي يا فخامة الرئيس .

واقتاده إلى السياره فانطلقت بهما عائدة إلى راشيا .

وعـاد الشيخ بشاره إلى القاعـة الباردة الموحشة في القلعة الصامدة الشماء .

ومـــا حصل للشيخ بشاره الخوري ، حصل لرياض الصلح .

فقـد اقتاده الضابط الفرنسي ، في اليوم التالي إلى بيروت حيث اجتمع بالجنرال كاترو .

وما عرضه الجنرال كاترو على بشاره الخوري عرضه على رياض الصلح : « سنطلق سراحكم شرط أن تصدر الحكومة بياناً تعتذر فيه للفرنسيين عما بدر منها في تعديل الدستور ، وسيحفظ هذا البيان للسلطات الفرنسية المنتدبة بعض كرامتها »

وما رد به بشاره الخوري على اقتراح القائد الفرنسي رد به رياض الصلح : « ... »

وأعيد رياض الصلح إلى قلعة راشيا .

وأيقن الجنرال كاترو أن رئيس الجمهورية متضامن مع رئيس وزارئه ومع الوزراء والنواب .

وادرك أن ليس ثمـة مفر من الاذعان للحق والعدل وللانصاف فـاتصل بالجنرال ديغول الذي كان في الجزائر واطلعه على ما حدث .

وقال الجنرال ديغول : اطلقوا سراح المعتقلين فوراً دون قيد ولا شرط .

ونفذت اوامر الجنرال ديغول ، واطلق الفرنسيون سراح المعتقلين .

وعاد المعتقلون إلى بيروت في موكب مهيب لم يشهد مثله لبنان .

وعم الابتهاج لبنان من اقصاه إلى اقصاه .

وغمرت الفرحة اللبنانيين ، وقد ادركوا انهم سائرون في طريق الاستقلال الناجز التام .

وبدأت الحكومة اللبنانية باتخاذ التدابير لتحقيق الاستقلال وجلاء الجيوش الأجنبية عن البلاد .

وكان الشبان اللبنانيون يندفعون في العاصفة الهوجاء على ثورة وحماس .

وانصرف الجامعيون من الطلاب ذاك العام إلى الأهتمام بالقضايا الوطنية وبالامور السياسية لا يأبهون لدروسهم ، ولا يعيرونها اقل اهتمام .

وكانت النتيجة رسوب معظم طلاب الجامعتين ، الفرنسية والاميركية في الامتحانات عام ١٩٤٤ .

وكان عصام سلوم بين الراسبين ، وقد صرفه اهتمامه في القضايا الوطنية عن الدرس والتحصيل فلم يستطع أن يفوز ببراءة الحقوق. واصبح من المحتم عليه العودة إلى الجامعة

سنة اخرى .

ومعنى ذلك أن عليه ، وعلى حبيبته نجاة أن ينتظرا عاماً آخر لتحقيق الاحلام العذاب والاماني الوارفة الظلال .

•

وفي مطلع ذاك الصيف – صيف ١٩٤٤ ، عاد عصام سلوم إلى قريته الصغيرة الخضراء حاملاً معه إلى والده النبأ المؤسف المؤلم ، نبأ رسوبه في الامتحان .

ووجم نجيب سلوم.وتمتم بألم وأسى : اذن لن نستطيع الانطلاق في ميدان العمل يا ابني هذا العام ؟

فهمس عصام :

لا .. يتحتم علي العودة الى الجامعة سنة خامسة يا والدي .

فترقرقت دمعة خرساء في مقلتي ابي عصام ، وصمت.

ووجم عصام وهو يشاهد الدمعة في عيني والده .

وتساءل بقلق : ما بك يا والدي ؟

فمسح نجيب سلوم الدمعة الحائرة ليتمتم : سيستحق بعد شهور قليلة « رهن » الكرم والبستان يا ابني : وعلي أن

انقد الدائن ماله وإلا استولى على البستان والكرم . لقد خيل لي انك ستستطيع مد يد المساعدة الي لأيفاء ديننا لا سيا وانني مرهق ، وعلي أن أوفر نفقات عرس شقيقتك الصغرى نسيمة التي سيتم زفافها على نعيم ابن ابي نعيم في مطلع العام القادم ، اي بعد شهور قليلة .

فتحول وجوم عصام إلى ذعر ، وقد ادرك خطورة الموقف .

كان قد خيّل اليه انه سيستطيع الأعتاد على والده في تأمين نفقات الجامعة ، لا سيا ، وما يتقاضاه من عمله في مكتب المحامي النائب جابر العواد لا يكاد يكفيه ثمن طعام وثياب واجرة الغرفة النازل فيها ، في دار نجاة على الرحب والسعة ، فاذا به يفاجأ بأن والده بحاجة الى من يمد له اليد .

وانصرف عصام سلوم إلى التفكير بحيرة وألم وقلق : ماذا عليه أن يفعل ؟ هل ينقطع عن متابعة الدرس ! أيتوقف عن المسير الى براءة الحقوق وقد بات منها على قيد خطوات قليلة ؟

ليس امامه إلا هذا السبيل ، ما دام المال غير متوفر له لمتابعة علومه ..

ما عليه إذاً الا أن ينقطع عن الجامعة ، وينصرف إلى العمل...وشعر عصام بالألم يسحق قلبه .

شعر بأن الدنيا تضيق به ، وقد بدا المستقبل قاتم السواد أمام عينيه .

وقفل راجعاً إلى بيروت والألم يعصف بـه ، والهمّ يسحق قلبه الندي الطهور .

واستقبلته نُجاة بالبسمة الطلقة فاتحة له ذراعيها .

الا انها وجمت وهي تشاهد الأسى يطل من عينيه . فتساءلت : ما بك يا حبيبي؟ !

فهمس ، وقـد أبى أن يبوح بالسر المؤلم الـدامي للحبيبة الولوع :

– لا شيء يا حبيبتي . ما هناك سوى قلق بسيط يستبد بي بسبب رسوبي في الامتحان .

فضمته إلى صدرها برفق وحنان هامسة : لست أول الراسبين ولـن تكون آخرهم . لا بأس ستكـد وتتعب وتجتهد وتفوز ببراءة الحقوق بعد عام ، عام واحد فقط وتصبح محامياً يشار اليه بالبنان .

قال محاولاً التمويه .

– ولكن معنى ذلك أن موعد زفافنا لن يكون قبل انقضاء عام كامل ، بعد أن كان منا على مرمى حجر .

فطفت على شفتيها ابتسامة هادئة صافية وتمتمت : لا بأس ، سننتظر عاماً وسينقضي هذا العام على سرعـة

واندفاع . من جدَّ وجد ومن صبر ظفر عليك أن ، تجدَّ وعلى حبيبتك نجاة أن تصبر

قال وهو يشمل لفافة : سأنقطع عن الجامعة .

فوجمت . وهالها النبأ المقلق ، وتمتمت بتساؤل ملحاح : ماذا تقول ؟ . هل جننت يا عصام ؟

قال مؤكداً : لن أعود إلى الجامعة . سأمضي في طريقي إلى العمل .

فعادت إلى السؤال : لماذا ؟

– لقد مللت الدرس ، وسئمت هذه الكتب التي سلخت اربع سنوات من عمري بين صفحاتها .

فأمسكت بيده تشدها على عطف وحنان هامسة : لا يا عصام . لا يا حبيبي : لن تنقطع عن متابعة دروسك . يجب أن تواصل الدرس وتفوز ببراءة الحقوق . فالمستقبل امامك سيكون زاهراً باسماً زاهياً وأنت مسلح بالبراءة المشرفة ، لا تقضِ على مستقبلك الباسم يا عصام بيدك

قال باصرار : لقد اتخذت قراري : ولن اعود عنه

فادركت نجاة أن ثمة سراً وراء زهد حبيبها ببراءة الحقوق.وحاولت الوصول إلى ذلك السر ، الا أنها عجزت امام اعتصام عصام به ، وإصراره على القول إنه سئم الدرس ، ومل الدفاتر والكتب .

وخيل لنجاة أن عصاماً على خلاف مع والده .

وامتدت بها الهواجس ، فلاح لهـــا انها هي السبب وراء ذاك الخلاف : ترى هل يمانع ابو عصام في زواج ابنه منها ؟

ايكون هـذا هو السبب في عزم عصام على الأنقطاع عن الدرس ؟

ولم تستطع الأجابة على هذا السؤال .

ومضت نجاة في التفكير : يجب أن تقف على هـذا السر الدفين .

يجب أن تعلم السبب الذي من اجله يريـــد عصام التوقف عن المسير في الطريق الوصول إلى براءة الحقوق .

ما هو هذا السر .

كيف ؟ ..

واستغرقت في التفكير ..

واخيراً ، بعد تفكير طويل لاح لها امل بعيد واه ما عليها الا أن تبحث عن ذاك السر من مصدره فقد عاد عصام من القرية بقراره هـذا ، قرار الانقطاع عن الدرس ، وهو قـد عاد على ألم وقلق ووجوم ، فالسر إذاً هناك ، هناك في القرية ، وعليها أن تحاول كشفه هناك في القرية .

وعزمت على مرافقة عصام إلى القرية ، فقـد اعتاد عصام ، أن يشخص إلى القرية كل يوم سبت طيلة



فصل الصيف ، ويعود يوم الاثنين إلى عمله .

فلتنتظر إطلالة السبت وترافقه إلى القرية .

وهي لن تعود إلى بيروت الا وقد وقفت على ذلك السر الذي يخفية عصام في صدره على ألم وعذاب .

وما أن أطل يوم السبت ، حتى وثبت إلى الحبيب الولوع قائلة .

سارافقك اليوم إلى القرية يا عصام . لقد اشتقت إلى أم عصام وإلى ابي عصام وإلى اخت عصام .

فهمس : لن اشخص اليوم إلى القرية يا نجاة ؟

فتأكدت لديهـا هواجسها : هو إذن على خلاف مع أهله

قالت : الا تريد أن تصطحبني معك ؟ . أيضيرك أن اكون رفيقتك إلى القرية يا عصام .

فأحس بانه آلمها ، قال ، وهو يشد يدها :

ـ مجنونة هل يخيل إليك انني اريد اقصاءك عن اهلي

قالت : بـــل يخيل إلي أن أهلك يريدون اقصاءك عني .

فهاله ما تقول .

وغمتم : أنت تعلمين مدى المحبة الـتي يحفظها والدي ووالدتي واختي نسيمه لك يا نجاة . تريدين أن تشخصي إلى القرية ليكن ما تريدين .

وكان لها ما ارادت ..

وشخصت مع عصام إلى القرية : فاذا بالجميع يفتحون الاذرع والقلوب على محبة وارفة وحنان بعيد قصي .

وتبددت هواجسها : ليست هي السبب ، في ما اتخذ عصام من قرار .

فما هو السبب إذن ؟

ورأت أن تسعى للوقوف على ذلك السر : من شقيقة عصام : من نسيمة .

نسيمه فتاة قروية ساذجة — فلن تستطيع أن تخفي سراً عن نجاة ، مهما كان هذا السر عميق المدى بعيد القرار

ووثبت إلى نسيمة تمسك بيدها هامسة : تعالي معي أريد أن انطلق إلى الحقول ، إلى الاحراج إلى البساتين ، اريـــد أن أنشق هواء القرية العليل ، وأن امتع النظر بجمال طبيعتها الفاتن الجميل .

ولبت الفتاة القروية الطلب ، فسارت مع نجاة إلى الحقول وإلى البساتين .

وانطلقتا ، فراشتين تجنيان الزهر ، وتمتصان الرحيق . وبدأت نجاة ، وقد توغلتا في الحقول والبساتين طرح الشباك فتمتمت :

— كم أتمنى لو أستطيع قضاء العمر كله ، هنا في هذه الربوع ، في حضن الطبيعة الباسمة السمحاء يا نسيمة ، هنا يشعر الانسان بـأنه قريب من الله ، أمـا هناك في

المدينة ، فيشعر بأن مسافات بعيدة ، بعيدة ، بينه وبين السماء . لم يكن عصام مخطئاً يوم اتخذ قراره بالانقطاع عن الجامعة ، والعودة إلى هذه القرية .

وتمتمت نسيمة ، بلهجتها القروية الطاهرة : هذه هي مشيئة الله يا أختي .

قالت : ولكن عصاماً أخطأ في ضرب موعد العودة الى القرية ، كان الأحرى به أن يتابع المسير للوصول الى براءة الحقوق لاسيا وما هناك سوى عام واحد بينه وبينها .

فعادت نسيمه الى التمتمة :

لتكن مباركة مشيئة الرب .

قالت نجاة :

– يخيل الي ان عصاماً أرغم على الانقطاع عن الدرس يا نسيمة . أأكون مخطئة في ما خيل الي !

فهمست نسيمة :

– لا . أنت لست مخطئة يا اختي . أخي عصام لم يكن مخيراً في اتخاذ قراره . . فهو قد ارغم عليه ، وأنت لا تجهلين أي أزمة مالية نتخبط بها . .

لا تجهل !.

بل هي تجهل كل شيء . الا أنها رأت أن تمضي في طرح الشباك . قالت :

ـ لا .. أنا لا أجهل ذلك ، الا انني لم أكن أتوقع أن تؤدي هذه الأزمة الى انقطاع عصام عن تحصيل العلوم ، لاسيا وهي أزمة عابرة بسيطة .

فاندفعت نسيمة في الدفاع عن شقيقها عصام موضحة لصديقتها المخلصة الوفية ما خفي عنها . قالت :

يخيل اليك انها أزمة بسيطة الا انك على خطأ يا أختي . ان والدي رهن الكرم والبستان كي ينفق على تعليم عصام ، وقد خيل اليه ان عصاماً سيستطيع العمل والجني بعد أربع سنوات فحدد موعد البدء بإيفاء الدين عند انتهاء السنوات الأربع . وها ان السنوات انقضت وحان موعد الايفاء ، وعصام لم يستطع الوصول الى براءة الحقوق وصاحب المال يطلب ماله ، وإذا لم نستطع اعادة المال ، أو بعضه الى صاحبه فهو سيستولي على الكرم والبستان .

فبدأ السر ينجلي أمام عيني نجاه الوردي . اذن عصام يتخبط في ازمة مالية خانقة ، وهو مرغم على الانقطاع عن الدرس ، وستقضي هذه الازمة على مستقبله الباسم الزاهر ، الندي .

وشعرت نجاة بعبء ثقيل يشد منكبيها ، وقد لمست هول الكارثة التي ستحل بحبيبها عصام . هذه الازمة ستقضي على اماله ، هو لن يستطيع الوصول إلى براءة

الحقوق ، والوصول اليها يحتاج إلى المال ، والمال غير متوفر له و ؟ ماذا تستطيع ان تفعل هي ، كل ما لديها من المال لا يكاد يشتري لعصام بعض الكتب المدرسية الباهظة الثمن ، وإبرتها لا تكاد تجود عليها بثمن الطعام والثياب ، فهي تشتغل الليل والنهار لانجاز ثوب كي تنفق اجرته على طعامها وثيابها . فالأزمة التي يتخبط بها عصام ليست بأشد ولا بأدهى من تلك التي تتخبط بها هي . صحيح أنها لا ترزح تحت عبء الديون مثلما يرزح عصام ووالده ، ولكنها لا تملك بستاناً وكرماً كما يملك عصام وابو عصام ، ولو انها تملك كرماً أو بستاناً أو حقلاً لما تورعت عن « رهنه » أو عن بيعه لتسد بثمنه نفقات تعلم حبيبها عصام ، وايصاله إلى ما يصبو اليه ويريد . الا أن العين بصيرة واليد قصيرة ، وكيف لها الوصول إلى المال الوفير الذي يحتاج اليه عصام .

وعندما عادت نجاة الوردي من القرية الباسمة الخضراء ، مع حبيبها عصام سلوم إلى بيروت ، كانت تحمل معها على منكبيها الهموم الثقيلة العبء والهواجس والآلام .

وعادت إلى سؤال عصام مراراً عن سبب رغبته في الانقطاع عن متابعة الدرس ، وهي تأمل أن يبوح لها عصام بالسر فتخفف عنه همومه ، وتواسيه ، وتشجعه على احتمال الكارثة ، الا أن املها خاب ، وقد حرص عصام على اخفاء سره ، والانطواء على جراحه الدامية

الثخينة .

وترى نجاة حبيبها عصام غارقاً في همومه وآلامه ، فيثخن مرآه فؤادهـــا بالجراح ، وتتمنى لو تستطيع أن تنتزع تلك الهموم من قلب عصام لتلقي بها في قلبها هي وتريح عصاماً منها .

وبدأ الصيف يلملم اطرافه .

وأطل ايلول .

وكلما اقترب موعـــد بدء العام المدرسي ، وافتتاح ابواب الجامعة ازداد عصام تجهماً ووجوماً ، وازداد الألم اتقاداً ، والحزن التهاباً في قلب نجاة ، وترقرقت عيناها الحالمتان بالدموع .

***

الفصل السادس

الأقدار تلعب بحياة البشر .

فتزرع في دروبهم الاحداث ، وتغمر قلوبهم بالفرح حيناً ، وحيناً بالهموم والآلام ، وتملاء عيونهم بالدموع ، وتغمر شفاههم بالابتسام .

وهي الأقدار ، تضرب لهم المواعيد ، مواعيد الفرح والحزن ، والأمل واليأس ، والحب ، والكره والتسامح والحقد والبغض وما على البشر الا أن يلتقوا عند تلك المواعيد ، دون أن تكون لهم يد فيها .

فهم يحبون في موعد تقربة لهم الاقدار .

ويكرهون في موعد آخر . .

يحزنون في موعد . ويفرحون في موعد .

ولا يعلمون متى يكون ذلك الموعد .

وهكذا تتلاعب الأقدار في حياة البشر على هـــذه

الأرض الفانية .

ونجاة الوردي ، مثل جميع البشر ، كانت لعبة في يد القدر تقذف بها إلى مجاهل الغيب . بدون أن تعلم ماذا يخبىء لها ذلك الغيب .

وانزوت نجاة الوردي في منزلها في حي راس النبع في بيروت تفكر بمصير حبيبها عصام ، بعد أن عجزت عن تأمين نفقات الجامعة ، وقد خيل اليها انه قضي على مستقبل حبيب القلب والروح .

ومضت نجاة في التفكير بحثاً عن وسيلة تستطيع فيها مد يد المعونة إلى عصام ، الا انها لم تهتدِ إلى الوسيلة المنقذة .

وإذا بالاقدار تتدخل ، وقد ضربت لنجاة الوردي موعداً مع الراقصة الحسناء نوادر ، بدون أن يكون للراقصة الحسناء ولا للخياطة الماهرة علم بهذا الموعد .

والتقت الراقصة والخياطة ...

ذات صباح ، فيما نجاة الوردي جالسة تخيط ثوباً لأحدى الصديقات أطلت عليها الراقصة حاملة معها قطعة من القماش زاهية اللون ، طالبة اليها أن تخيط لها ثوباً ترقص به وتتهادى وتختال .

ورحبت الخياطة بالراقصة شديد الترحيب . فهي صديقة مخلصة ، تتردد إلى تلك الدار منذ امد بعيد.منذ

أن كانت أم نجاة على قيد الحياة .

وجلست الراقصة نوادر قرب نجاة تسايرها وتسامرها وتسألها عن الحال والاعمال .

وشكت نجاة الوردي لصديقتها الست نوادر سوء الحال وبوار الاشغال . فالحال سيئة ، والاشغال اسوأ من الحال . وأسفت الراقصة نوادر شديد الأسف لما حل بصديقتها نجاة .

وهمست : حالك هذه تؤلمني وتؤسفني يا نجاة . ما كان أغناك عن السهر في غرز الأبرة الليالي الطوال لتتقاضي أجرة ثوب عشرين أو خمسين ، أو مئة ليرة ، لو أنك نزلت عند رأي اختك نوادر لكنت الآن في نعيم .

فتساءلت نجاة ، وقد نسيت ما كان رأي اختها نوادر : وبماذا اشرت علي يا ست نوادر ؟

فطفت على شفتي الراقصة الحسناء ابتسامة مكر وخبث ودهاء لتهمس : يلوح لي أنك ضعيفة الذاكرة يا نجاة . هل نسيت أم تناسيت ما عرضت عليك منذ مدة قريبة

قالت نجاة : لا اذكر انك عرضت علي شيئاً .

فأشعلت الست نوادر لفافة فاخرة ، واستوت في المقعد الرجراج الوثير لتقول : ألا تذكرين انني عرضت عليك العمل معي في الرقص ؟

فتهادت الذكرى واهية خافتة في رأس نجاة .

وتذكرت ... لقد تذكرت نجاة عرض نوادر . وهزت رأسها هازئة .

وهمست : أنا ؟ . اعمل راقصة ؟ ..

فنفثت نوادر دخان اللفافة الفاخرة في الفضاء وتمتمت ولم لا ؟ هل يضيرك أن ترقصي نصف ساعة كل ليلة.نصف ساعـة فقط ، وتتقاضين ثلاثة الاف ليرة في مطلع كل شهر .

- ثلاثة الاف ليرة ؟ ..

- نعم ثلاثة الاف ليرة . قـد لا تحصلين عليها في عملك الليل والنهار طيلة عام من غرز الأبرة في خياطـة الاثواب .

فتمتمت نجـاة : ولكنني اجهل فنون الرقص ، فمن اين لي أن ارقص وأنا لا أعرف من الرقص الا الأسم ؟

واقتربت نوادر بجلستها من نجاة .

وأمسكت بيدها على رفق وحنان لتقول : اسمعي يا نجاة . الرقص ليس أحجية تحتاج إلى جهد وتعب لفك رموزها . انه امر بسيط ، لا يحتاج إلى عبقرية ونبوغ. فانا تعلمت الرقص واتقنته خلال شهر واحد . يكفي أن تكون الفتاة على شيء من الجمال . ذات قد رشيق وقامة هيفاء كي تبرع في فن الرقص وتلاقي الاعجاب ، وتشتعل الاكف بالتصفيق كلما خطرت وتهادت وقفزت وتلوت على



المسرح ، وأنت ، حرسك الله ، تنعمين بجمال رهيب ، وبقد رشيق ، وبقامة هيفاء تحسدك عليها حوريات الجنان .

فعادت نجاة إلى التمتمة : ولكن ماذا ستكون حالي عندما أخطر على المسرح ويكتشف المشاهدون انني اجهل فن الرقص ؟

فقهقهت نوادر .

وتمتمت : هل يخيل اليك أن رواد الملاهي عباقرة في الفنون ؟ اطمئني يا نجاة . ليس بين رواد الملاهي من يفقه معنى الفن، يكفيهم انهم يشاهدون وجهاً جميلا أوقداً رشيقاً . أما الفن فهم لا يعيرونه أقل اهتمام . المطربة

المبدعة عندهم ليست صاحبة الصوت الشجي ، بل هي صاحبة الوجه الجميل والابتسامة الساحرة ، والراقصة الفاتنة لديهم ليست الفنانة التي تجيد الرقص ، بل هي صاحبة القوام الرشيق والقد المياس .

فتمتمت نجاة : ولكن على الراقصة أن تظهر عارية على المسرح ، اتريدنني أن اعرض جسدي العاري امام العيون الجائعة الجشعة .

قالت نوادر : ومن قال لك : « ارقصي عارية ! » تستطعين أن ترتدي ثوباً فضفاضاً جميلاً وتخطري فيه امام الجماهير..وتلاقين الاعجاب والتقدير . وثلاثة الاف ليرة في مطلع كل شهر...

فهمست نجاة : ولكن هناك التقاليد يا ست نوادر ماذا سيقول اهلي واصدقائي وصديقاتي بي وهم يعلمون انني اصبحت راقصة ؟

فشدت يد الراقصة نوادر يد نجاة الوردي، .

وتمتمت : التقاليد لا تشبع جوعاً ولا تروي عطشاً وثقي أن ليس ثمة بين اهلك من يطعمك لقمة خبز إذا جعت ، ولا بين صديقاتك واصدقائك من يسقيك كأس ماء إذا عطشت .

فتمتمت نجاة : لا .. لن اكون راقصة ، لن اكون

فقطعت نوادر عليها الكلام لتقول : اسمعي يا نجاة انا سأسافر بعد أسبوع واحد إلى بغداد لأعمل في مسارحها

استطيع أن احمل صاحب ملهى ليلي هناك على التعاقد معك لترقصي في ملهاه لمدة ثلاثة اشهر لقاء ثلاثة الاف ليرة كل شهر .

وصمتت نجاة على تفكير بارد سحيق عميق .

واستأنفت نوادر الكلام ، وقد ادركت أن العصفور سائر في الطريق إلى الشرك : سينقدك مرتبك عن الأشهر الثلاثة دفعة واحدة مقدماً ، تسعة الاف ليرة لبنانية ، والف لـــيرة هبة منه ، وتسافرين إلى بغداد على نفقته وتنزلين هناك في فندق فخم على نفقته ايضاً .

فدهشت نجاة الوردي للعرض السخي ، الا انها اصرت على الرفض وهمست : لا .. لا .. لا ..

وعـادت نوادر إلى قطع الكلام عليها هامسة : لا تقولي الان .. «لا» ... ولا تقولي : «اجل» .. فكري ملياً بالامر . امامـــك ثلاثة ايام للتفكير والوصول إلى قرار حاسم . انا سأعود اليك بعد ثلاثة ايام لأستلام ثوبي ، وللوقوف على رأيك الصائب السديد .

ونهضت الراقصة نوادر مودعة ، وخرجت تاركة نجاة غرقى في لجة عميقة الغور من القلق والحيرة والتفكير .

وأرهقها التفكير ، وأنهكها القلق ..

●

وعندما عاد عصام من عمله في المساء هاله اكفهرار جبينها واصفرار وجهها فبادرها بالسؤال :

– ما بك يا نجاة ؟

وهمست : لا شيء يا عصام .

قال : يلوح لي انك متعبة يا حبيبتي .

فتمتمت : لقد ارهقني العمل ، لا تقلق يا عصام سأكون بألف خير بعد أن ارتاح قليلا .

فانتزع الثوب من يديها متمتماً :

– دعي العمل الآن .. يجب أن ترتاحي يا حبيبتي .. تعالي .. تعالي معي إلى دار السينما حيث نشاهد عرضاً مسلياً .

ورفضت دعوته ،قالت :

– لا .. سنسهر هنا . على الشرفة . لن نخرج من الدار الليلة .

وسهرا على الشرفة ..

وراحا يتحدثان ..

ويتسامران ويبثان النجوم نجواهما .

ونجمة الزهرة ، نجمة الحب ، ترمقهما بنورها . فتبعث الأمل في قلب عصام ، والقلق والألم والعذاب في قلب نجاة الوردي .

وعندما آوت نجاة إلى سريرها لم تستطع أن تستسلم لسلطان الكرى ، على رغم ما نزل بهـا من تعب وقلق وعياء ، بل هي عادت إلى التفكير بكلام الراقصة نوادر : عشرة آلاف ليرة تتقاضاها دفعة واحدة .

إنه لمبلغ طائل رجيح لم يصل إلى يدهـا مرة في حياتها ، وسيكون هذا المبلغ الضخم كافياً لدفع الفاقـة عن عصام .

ستكفـل الآلاف العشرة لعصام الوصول الى براءة الحقوق وتضمن له السعـادة وتؤمن له المستقبـل الزاهر الزاهي .

صحيح ان عصاماً سيخسرها هي ، ولكنـه سيربح براءة الحقوق ، وهي لن تستطيع أن تسعد عصاماً كما تسعده البراءة المرجوة .

وسعادة عصام هي كل مـا تبتغي ، وتريد نجـاة الوردي .

ومضت في التفكير ..

ستخسر هي سعادتها ، وما سعادتها إلا في الزواج من عصام .

ولكن مـا قيمة سعادتهـا إذا مـا قيست بسعادة حبيبها عصام .

ستوافق على عرض الراقصة نوادر وتشتري سعادة عصام بسعادتها هي ..

وبدأت مواكب الفجر المزهرة بالبزوغ من وراء حجب الظلام ، ونجاة الوردي مستلقية في سريرها تفكر ..

تفكر وتبكي .

ولم تشعر بأنها تبكي وبأن الدموع تتدحرج على وجنتيها الا وقد اكتشفت ان وسادتها مبللة بالدموع .

وحاولت الرقاد ، حاولت الاستسلام للكرى ، الا انها عجزت ، فالافـكار المقلقة ، والهواجس الممضة ، والدموع الثخينة تقطع عليها السبيل إلى النوم

ووثبت من السرير . لتخرج إلى الشرفـة فتستقبل الفجر وتودع النجوم بالآهات والدموع والألم والحنين . .

وتوصلت إلى اتخـاذ القرار الحاسم بانتظار انقضاء الأيام الثلاثة وستوافق على عرض الراقصة نوادر .

ستكون راقصة .

هذه مشيئة الله . فلتكن مشيئته المباركة مقدسة في السماء وعلى الارض .

•

وعندما أطلت الراقصة نوادر ، في اليوم الثالث على نجاة بادرتها ابنة بديع الوردي بقولها : سأعمل برأيك يا ست نوادر .

ووثبت الراقصة الحسناء إلى نجاة تضمها إلى صدرها هاتفة : كنت على يقين من انك ستنزلين عند رأيي . فالعرض مغر يا اختي ، وليس ثمة من ترفض مثل هذا العرض ، الا إذا كانت مجنونة ، وأنت ، والحمد لله ، بالف عقل وعقل .

فتساءلت نجاة : متى اوقع العقد وأتقاضى المال ؟

واجابت نوادر : الآن إذا شئت . العراقي ، صاحب الملهى هنا في بيروت : تعالى معي اليه ..

وامسكت بيدها ، وطارت بها إلى صاحب الملهى .

وعندما عادت نجاة إلى دارها كانت يدها قابضة على عشرة آلاف ليرة ، وعلى جواز السفر الذي تكفل بانجازه صاحب الملهى

وكانت الدموع تحرق عينيها والألم يلسع صدرها بسياطه ، والآهات تثخن قلبها الندي الطهور بالجراح

•

اليوم ، يوم السبت .

موعد صعود عصام سلوم إلى القرية لقضاء عطلة الاسبوع بين اهله واصدقائه القرويين .

ووثب عصام إلى نجاة هاتفاً : تعالي معي يا نجاة. ستشخصين معي الى القرية ونقضي يوم غـد الاحد في ربوعها الخضراء . ثم نعود صباح الاثنين .

واعتذرت نجاة عن تلبية الدعوة السمحاء .

قالت : لا يا عصام ، لـن استطيع مرافقتك إلى القرية ولديَّ الكثير من الأعمال . بين يدي ثوب للراقصة نوادر يتحتم علي انجازه غـــداً . سر وحدك إلى القرية واحمل سلامي الناطر إلى والديك وإلى شقيقاتك الحبيبات

وحاول عصام اقناعها بالنزول عند طلبه ومرافقته إلى القرية الا انه عجز ، فقد اصرت نجاة على موقفها لا تحيد عنه ولا تلين : بين يديها ثوب للراقصة نوادر ، وعليها أن تنجزه قبل أن يتوارى يوم الأحد ...

وشخص عصام إلى القرية ،

وما أن توارى عن الدار حتى وثبت نجاة إلى ثيابها تجمعها في حقائبها وتستعد للرحيل .

فموعد السفر في صباح غد ، في صباح يوم الأحد ، وعليها أن تكون متأهبة للسفر في الموعد المضروب .

وعندما توارت الشمس وراء الأفق البعيد ، وبسط غراب الليل جناحه المدلهم على بيروت كانت نجاة الوردي قـد انتهت من تهيئة معدات السفر ، وحزم الحقائب ،

فجلست تكتب رسالة الوداع إلى حبيب القلب والروح ، الى عصام :

« عزيزي عصام ... »

« عزيزي » .. وليس « حبيبي »

فقد حرصت على أن تعتمد الجفاء في رسالتها لئلا تثير الحنين والشوق والألم في قلب عصام :

« عزيزي عصام ! ..

عندما تتهادى هذه الرسالة بين يديك أكون بعيدة عن بيروت ألوف الأميال ، فأرجو أن تغفر لي كتمان نبأ سفري عنك .

لا تبحث عني ، لأن البحث لن يجدي نفعاً .

ولا تسل عن سبب سفري لأن السبب واضح جلي ، فانا فتاة أبحث عن مستقبلي ، ويلوح لي أن المستقبل يدعوني اليه في غير هذه البلاد .

مع هذه الرسالة مبلغ من المال ، كنت قد اقتصدته من عملي وعمل المرحومة امي . انا لست بحاجة اليه فلعله يفيدك . أرجو أن تقبله مني .

كهدية ؟ .. لا .. بل كسلفة ، فاذا ما عدتُ الى

لبنان يوماً تعيده إلي ، وإلا فانت في حل من عهد لم تسع إلى الارتباط به .

ارجو لك التوفيق والسعادة .

واسلم لصديقتك .

نجاة ...»

وطوت الرسالة ، ووضعتها على المنضدة في غرفة عصام قرب سريره على الآلاف المشرة .

وحانت منها التفاتة إلى الطاولة الجاثمة في الغرفة فشاهدت صورة عصام بين كتبه ودفاتره واوراقه ، فوثبت اليها تحملها من الغرفة .

ستحتفظ بهذه الصورة العمر كله.

وستكون هذه الصورة سلواها الوحيدة تذكّرها بحبها الضائع وبأملها الصريع .

وراحت تطوف ارجاء الدار التي شاهدت مأساة حبها ، وهي تبكي .

وخرجت إلى الشرفة : هنا كانت تجلس مع عصام كل ليلة .

هذه هي الليلة الأخيرة التي تقف فيها على هذه الشرفة.

وتطلعت إلى النجوم هامسة :«رأيتها النجوم السابحة



في الفضاء ! . ليلة غد ستشاهدين عصاماً هنا على هذه الشرفـــة وحده ، بلّغيه سلامي . أنت يا نجوم الليل شاركتنا السهر ورمقتنا بنظراتك الحالمـة ، ووقفت على اسرارنا جمعاء ، انـك لتعلمين كم ستتألم وكم ستحن ، وكم ستبكي ، وكم ستشتاق صديقتك نجاة ...»

واجهشت بالبكاء ...

وعادت إلى داخل الدار تطوف في ارجائها على مناحة مؤلمة دامية .

وعادت للدخول إلى غرفة عصام لتنحني على وسادته تقبلها وتمرغ وجهها في الفراش .

وراحت تطوف ارجاء الغرفة نائحة باكية وهي تقبل كل ما لمست يد عصام من كتب ودفاتر واوراق ومقاعد في تلك الغرفة .

ولم يغمض لنجاة جفن طيلة ذلك الليل .

فقـد ارادت أن تقضي ذلـك الليل ساهرة ، للمرة الاخيرة في تلك الدار الـــتي نشأت وترعرت فيها وشاهدت فى حناياهـا مولد حبها الندي الطهور ومصرع قلبها الهائم الولوع .

وما أن اطل الصباح حتى كانت سيارة الراقصة نوادر تتوقف امام دار نجاة لتنقل الخياطة الحسناء مع امتعتها

إلى عاصمة الرشيد وعندما أطل يوم الأثنين كانت نجاة الوردي قد اصبحت بعيدة عن بيروت آلاف الاميال ، تماماً كما قالت في رسالتها لحبيبها عصام .

وأطل عصام على الدار صباح يوم الأثنين عائداً من القرية ، حاملاً معه لحبيبته نجاة بعض الاثمار التي تفضلها

ودخل إلى الدار وهو ينادي : نجاة ! ..

الا أنه لم يلقَ جواباً ، فخيل اليه أن نجاة خرجت من الدار لشراء بعض الاغراض كما اعتادت كل صباح : لا بأس ، هي ستعود بعد قليل ..

ودخل إلى غرفته ، ليفاجأ بالرسالة فوق المنضدة .

ورفع الرسالة ...

وسمرت عيناه على الاوراق النقدية .

رسالة ؟ .

ومبلغ من المال ؟

وفضّ الرسالة على عجل .

وذعر ، وهو يتلو سطورها القليلة .

وهتف كلمة واحدة : نجاة ! ..

وارتمى على السرير ، وقد شعر بدوار عنيف . وبعياء شديد وبألم حاد يخترق قلبه .

وخيل اليه انه في حلم مزعج مخيف رهيب ، فراح

يردد وكأنه يئن : مستحيل .. مستحيل .. مستحيل .

ولم يلبث أن نهض يطوف انحاء الدار وهو ينتحب ويهدر : نجاة ! . نجاة ! . نجاة ...

الا انه لم يقف على اثر لنجاة الحبيبة ، فأيقن انه ليس في حلم ، وإنه خسر نجاة إلى الأبد .

وشعر عصام بالعياء الشديد .

شعر بأن قدميه لا تقويان على حمله .

فعاد الى غرفته ليستلقي على سريره ويضيع في دوار شديد الوقع بعيد القرار .

وبدأت الحمى تنهش جسده الطري فغاب عن رشده

وعندما استفاق كان الليل يغمر بيروت والظلام يلف تلك الدار بجناحه القاتم السواد .

فنهض من السرير ليخرج الى الشرفة والدموع تغمر عينيه .

ونظر الى الفضاء .

فاذا بنجمة الحب ، نجمة الزهراء ، تتلألأ على زهو ووميض بين النجوم .

وانسابت في اذنيه همسات نجاة .

فسمع كلماتها ، وهي تقول له : « يلوح لي أن هذه النجمة ، نجمة الحب ، تخترق قلوبنا بنورها ، وتقف على اسرارنا . فاذا ما وقف النوى بيننا يوماً ، اذا ما

فرق الدهر بيننا يا عصام ، فأبعدك عني ، وابعدني عنك
اذا غبت يوماً عن عينيك يا حبيبي ، سل هذه النجمة
عني ، فهي تعرف اين اكون ، وماذا حل بي .. »
وهمس عصام سلوم ، وهو يحدق بالفضاء : « ايتها
النجمة اللامعة ! . يا نجمة الحب ! . اين هي نجاة ؟ ..

وانهمرت الدموع غزيرة على وجنتيه .

الفصل السابع

ألف عام كلحظة عابرة في عينيك يا الله ...

فالزمن يمر في حياة البشر كخطف الوميض .

وتظل الذكريات وحدها عبر الدهور والأجيال .

ونحن لا نملك في حياتنا على هذه الأرض الفانية الا الذكريات ،ولعلنا لا نحمل معنا الى ما وراء الحياة ، الى الابدية ، ايضاً الا هذه الذكريات .

ومرت الأيام سريعة ، في حياة عصام سلوم ، كما تمر في حياة كل انسان على هذه الأرض .

وانقضت عشر سنوات جرت فيها حوادث عديدة لم تكن لتخطر على بال عصام سلوم ، يوم كان طالباً في معهد القديس يوسف للاباء اليسوعيين ، ويوم كان فتى ينزل في دار عفيفة أرملة بديع الوردي في حي رأس النبع في بيروت .

ونسى عصام سلوم الكثير من الأسماء ، والكثير من الحوادث التي مرت به ، الا انه لم يستطع أن ينسى اسم نجاة الوردي .

ولا هو استطاع أن ينسى حبها الهائل المظيم .
فقد ظل ذلك الحب العظيم يغمر قلبه ، ويلف روحه بوشاح فضفاض من الذكريات الدامية المؤلمة الرهيبة .
وكان عصام سلوم قد تبوأ مركزاً مرموقاً في لبنان كان قد أصبح محامياً لامعاً يشار اليه بالبنان .
وساعده الحظ ، واخذ بيده فأصبح نائباً في المجلس النيابي. فقد توفي النائب المحامي جابر العواد الذي تدرج عصام في مكتبه ، فورث عنه النيابة ، لا سيما بعد أن كان بين محامي لبنان من البارزين .

ولم يقف الحظ عن مساعدة عصام سلوم عند حد النيابة ، بل هو دفع به الى منصب الوزارة .
فأصبح ذلك الفتى القروي الفقير ، وزيراً في مطلع عهد الرئيس كميل شمعون .
ورضي عصام سلوم عن دهره ، وابتسم لحظه السعيد الا أن والده ابا عصام لم يرضَ ولم يبتسم .
فقد كان ابو عصام يأمل أن يصبح ابنه مختاراً في القرية ويطمع بلقب والد المختار ، غير أن عصاما خيب الأمل ولم يستطع الوصول الى المختترة فضاع على ابي عصام

لقب « والد المختار »

وام عصام لم تستطع أن تحظى بلقب ام المختار .

ولا هي استطاعت أن تتباهى على زوجة المختار أم درويش .

سامح الله عصاماً .

اراده والده مختاراً ، فأصبح وزيراً ..

وكان والده ووالدته يأملان ان يقيم في القرية ، فاذا به يقيم في بيروت ، ولا يكاد يطل على القرية الا لماماً وفي المناسبات الاجتماعية أو في المناسبات العائلية .

صحيح أن عصاماً يغمرهما ، وهما العجوزان ، بالمال وبالخدم ، الا أن لا المال ولا الخدم يعوض عليهما لقب « ابي المختار » و « ام المختار »

وطمع ابو عصام وأم عصام ، بأن يزوجا ابنهما عصاماً من فتاة قروية تعيش معهما « على البركة » في القرية ، فتهتم بالكرم وبالبستان ، وتعيد لذلك البيت القروي سابق عزه ومجده ، فتذيقهما خبز الصاج من يديها الخشنتين ، وتتقن صنع الكشك ، والبرغل ، والقورما ، والدبس ، والصعتر والزيتون المكبوس بالزيت ، الا أن عصاماً خيب املهما ايضاً وفجعهما في هذه الأمنية ، وخطب فتاة بيروتية هي كريمة اسعد بك الصواف .

وأبو عصام وأم عصام لا يعرفان من هو اسعد بك الصواف .

وكل مـــا يعرفان عنه انه صاحب مصرف كبير في بيروت .

ويعلمان ايضاً أن كنتهما سعاد تجهل صناعة الخبز على الصاج ، ولا تجيد صناعة الكشك ولا صناعـة البرغل والصعتر والقورما وكبيس الزيتون .

وهذا ما كان يقلقهما ويحز في نفسيهما ويعذبهما .

الا انهما نامًا على جراح قلبيهما ، فما في اليد حيلة ، وإذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون ...

واراد الوالدان العجوزان ما كان .

الا انهما راحـــا يصليان إلى الله بحرارة كي يحرس عصامــاً ويعيد اليه رشده ويعيده اليهما ، إلى القرية ، ويلهمه ليتخلى عن الوزارة وينتقل إلى المخترة ، وكي يلهمه ايضاً فيفسخ خطبته بالفتاة البيروتية ليعقد زفافه على ابنة ابراهيم ، وهي فتاة قروية لا ينزل حمل الحطب عن كتفيها أو على ابنة ابي عساف وهي ماهرة في صناعة خبز الصاج إلى حد بعيد تحسدها عليه فتيات القرية الماهرات .

الا أن الله عز وجل ، لم يستمع إلى صلواتهما الحارة ولم يعد الوزير عصام إلى القرية .

وعصام ، كان منصرفاً إلى السياسة .

متعمقاً فيها .

غارقاً في لججها البعيدة العميقة القرار .

فالسياسة صرفته عن كل عمل آخر .

فهو ينظر إلى مصلحته السياسية قبل كل مصلحة .

حتى خطبته من الآنسة سعاد ابنة اسعد بك الصواف كانت صفقة سياسية .

فقد كان عصام ينظر إلى البعيد ، ويطمع في الوصول إلى ابعد من منصب الوزارة ...

الا ان ما كان ينقصه هو المال ، والمال فقط ، للوصول إلى ما يطمع به ويصبو اليه .

ووجد في كريمة صاحب المصرف الكبير الأمل المنشود زواجه من سعاد سيجعله بين اثرياء لبنان في المقدمة لاسيما والفتاة وحيدة والديها .

وكل ما يملك صاحب المصرف الكبير من مال وعقار وقصور سينتقل إلى كريمتـه وبالتالي ، فهو سينتقل إلى الصهر العزيز .

واسعد بك نفسه وجد في زواج كريمته المصون من صاحب المعـالي عصام سلوم ، صفقة سياسية ، لتجارية ، رابحة .

فهو يملك كل ما يصبو اليه الانسان من مال ورفاهية ولا ينقصه الا الوجاهـة والمركز السياسي المرموق ، والكلمة النافذة عند الحاكمين .

وزواج ابنته من الوزير عصام يحقق لصاحب المصرف الكبير امله الباسم ، الهانيء ، الوارف الظلال .

وارتاح الاثنان : الخطيب ووالد الخطيبة لهذه الصفقة الرابحة .

اما الخطيبة سعاد فلم تكن لتأبة لهذه الصفقة ، فهي لا تهتم للأمر .

وكأن هذا الأمر لا يعنيها .

همها الوحيد اللهو ، والمجون ... تنتقل بين مسابح الشاطىء اللبناني الفسيح ، وبين النوادي الاجتماعية والملاهي والمقاهي والقصور .

شأنها شأن بنات المدينة اللواتي يرين الحياة لهواً وعبثاً ومجوناً وانصرفت سعاد إلى لهوها ومجونها .

وانصرف عصام إلى اعماله السياسية المرهقة .

فكأنهما ليسا خطيبين .

وهما لا يجتمعان الا لماماً . مرة أو مرتين في الاسبوع

فالوزير الكريم مرهق في العمل ، بين ديوانه في الوزارة ومكتبه في شارع ارستقراطي كبير ، وبين استقبال انصاره ومؤيديه وبين تلبية الدعوات الاجتماعية ، والسياسية والخيرية .

فلا يكاد يمر يوم ، الا ويجد صاحب المعالي نفسه مضطراً لتلبية دعوة نائب إلى العشاء ، أو تلبية دعوة

لحضور عرس ، أو دعوة لحضور حفلة خيرية .

وذات ليلة من ليالي الربيع الممرع الفواح العبير عزم عصام سلوم على الذهاب إلى القرية لزيارة والديه والأخلاد إلى الراحة ساعات قليلة .

الا أن السكرتيرة دخلت عليه لتقول : صاحب المعالي مضطر الليلة لتلبية دعوة جمعية سيدات الرحمة « لحضور حفلتها في مسرح كازينو لبنان »

وتذكر الوزير الموعد

وأسف لضياع فرصة زيارة القرية عليه وهو لا يستطيع أن يتخلف عن حضور هذه الحفلة وله بين سيدات الجمعية اكثر من صديقة واكثر من نصيرة .

وتمتم : ابلغي رئيسة الجمعية انني سأكون عندهن في الساعة التاسعة من الليل ، وهو موعد افتتاح الحفلة .

وبرّ الوزير بوعده ، وكان في مسرح « كازينو لبنان » في الساعة التاسعة .

واستُقبل صاحب المعالي بالتصفيق الحار ، والهتاف الشديد .

فقد حرصت سيدات الجمعية على استقبال صاحب المعالي بالحفاوة البالغة والترحيب العميق ، لا سيما وهن بحاجة قصوى إلى مساعدته والى مدّ يد معونته السمحاء لجمعيتهن .

واستوى الوزير في مقعد رجراج وثير في المقدمة .

وجلس حوله بعض النواب ورجال السياسة وسيدات الجمعية الجميلات .

وبدأت الحفلة :

خطاب طويل ألقته رئيسة الجمعية مرحبة فيه بصاحب المعالي «الرجل الوطني الصميم ، وصاحب المآثر الرائعة والأريحية السمحاء» .. وليعش صاحب المعالي ...

ودوت القاعة بالتصفيق .

ثم انتقلت الرئيسة الى شرح اهداف الجمعية ، وبسط ما قامت به من اعمال ، وعجزها عن متابعة رسالتها السامية ... و .. ونرجو مساعدتك يا صاحب المعالي ..

والتهبت الاكف بالتصفيق ، وانطلقت الشفاه بالدعاء لصاحب المعالي بالعمر الطويل .

وبدأ البرنامج الفني .

مطربة تغني ، وتتغنى بمزايا معالي الوزير الحميدة .

مطرب ينشد موالاً يشيد فيه بوطنية معاليه الكريمة المثناف .

ثم .. ثم ظهرت راقصة على المسرح .

وأعلن المذيع اسمها : « الراقصة الفاتنة مواكب »

وراحت الراقصة الحسناء « مواكب » تتلوى بجسدها الريان الندي .

وتقفز وتتهادى وتتمايل كغصن رطيب بين ايدي النسيم العليل .

وكانت انغام الموسيقى الحزينة ترافق خطوات الراقصة فالراقصة مواكب لا تهيم الا بهذه الانغام الحزينة ولا ترقص الا على موسيقاها .

ووقعت عيناه صاحب المعالي على وجه الراقصة الحسناء مواكب فذعر...

وسمرت عيناه بالوجه الفاتن الجميل .

وبالعينين الهائمتين الناعستين .

وبالشفتين المنفرجتين عن نصف ابتسامة حزينة صفراء

واشتد الذعر بالوزير عصام سلوم وقد سمرت عيناه بالراقصة مواكب .

واخذ يرتجف كأنه ورقة من اوراق الخريف تتلاعب بها رياح تشرين وتقذف بها في الفضاء .

وشعر بدوار شديد ...

شعر بالأرض تدور به على غير هدى ؛ وتحوّل الذعر في قلب الوزير إلى هلع شديد وقـــد التقت عيناه بعيني الراقصة الحسناء فجأة...

وغرز عينيه في عينيها .

فسمرت عينيها في عينيه .

واندلعت النار من العيون الاربع .

من عيني الوزير ، ومن عيني الراقصة .
واشتعلت النار في القلبين .
وانطلقت صرخة من الشفاه الأربع .
صرخة واحدة ؟
لا .. بل صرختان في لحظة واحدة .
– نجاة ! .
– عصام ! .
وأغمي على الراقصة الحسناء .
فهوت على المسرح بلا حراك .
وبقفزة واحدة كان صاحب المعالي قد وصل إلى المسرح قبل الجميع ليحمل الراقصة الحسناء بين يديه ويسير بها ، إلى سيارته ، إلى سيارة الوزارة ، والدموع تنهمر غزيرة على وجنتيه .
واندفع الجميع في أثر الوزير ، وقد هالهما الحدث .
وانطلقت سيارة الوزير إلى مستشفى الجامعة الاميركية بالراقصة مواكب
وكانت الراقصة فاقدة الرشد ، صفراء الوجه ، تنتفض من حين إلى آخر .
وتهمس دون وعي ولا حراك : « عصام .. عصام .. »
وكان الألم يحز في قلب عصام سلوم ، والقلق يستبد به ، والدموع تترقرق في عينيه ..
ويهمس : نجاة !.. نجاة !..

ووصلت سيارة الوزير إلى المستشفى فهب الأطبـــاء والممرضون والممرضات والموظفون إلى استقبالهـا ، وإلى الاهتمام بالفتاة الحسناء المريض التي تقلها السيارة .

من المؤكد إن هذه الفتاة ذات مقام رفيـع.وإلاّ لمـا أبدى صاحب المعالي اهتمامه الشديد بها ، وأقلها بسيارته الخاصة إلى المستشفى .

وانصرف الأطباء إلى الاهتمام بالفتاة الحسناء .

ووثب الوزير عصام سلوم اليهم هاتفاً بهم : خـذوا حياتي وانقذوها ...

فهالهم ما يقول الوزير .

لقد صدق ظنهم ..

انها لفتاة كريمة الحسب والنسب ، ما دام الوزير مستعداً لبذل حياته من أجل حياتها ..

وتمتم الأطباء : سلمت حياتك وحياتها يا معالي الوزير ..

قال : هل هناك خطر يتهددها ؟

فصمتوا برهة ليقول أحدهم : الفتـاة مصابـة بصدمة عنيفة أتعبت قلبها وأرهقت أعصابها . قلبها مهدد بالتوقف وقد أتعبته وأرهقته الصدمة النفسية الصاعقة ، إلا أننـا نرجو أن نوفق في انقاذ هذا القلب الفتي الندي يا صاحب المعالي .

وتدحرجت الدموع غزيرة على وجنتي الوزير .

وهمس : حياتي ولا حياتها ، خذوا حياتي وانقذوها ..

ومضى الأطباء في معالجة الفتاة ،

واذا بهم يعلنون ، بعد معالجـة طويلة . إن الفتاة اجتازت مرحلة الخطر و .. والحمدلله على سلامتها يا صاحب المعالي ..

وتحولت دموع الحزن والألم والقلق في عيـني الوزير إلى دموع فرح وابتهاج .

وهمّ بالدخول الى غرفة نجاة ، الا ان الأطباء أشاروا عليه بالتريث ، وقد أيقنوا مما يبدو لهم في الوزير ، ان صاحب المعالي متيم عاشق ولهان ..

قالوا : من الأفضل يا صاحب المعالي أن تتريث قليلاً ريثما تستعيد الفتاة قواها .

وتجرأ كبير الأطباء . وهو طبيب القلب ، فهمس في اذن الوزير متسائلاً : أتكون حبيبتك ؟

فتمتم : أجل يا دكتور ، هي حبيبتي الآن وزوجتي غداً

وربت الطبيب الكبير على كتف صاحب المعالي متمتماً : اطمئن.حبيبتك ستعيش يا صاحب المعالي .

وفتح الطبيب الباب ، باب الغرفة قائلاً : حبك العظيم سيدفع الى قلبها الحياة ..

ودخل عصام الى الغرفة البيضاء ، فاذا بحبيبته نجاة مستلقية على السرير تائهة النظرات ، صفراء الوجـــه ، واهية القوى .

واقترب من السرير على اتئاد خطى .

وأمسك بيدها الباردة يشدها هامساً : نجاة !..
وخرجت كلمة نجاة من قلبه لا من شفتيه .
وشدت أصابع نجاة ، أصابع حبيبها عصام سلوم
وأغمضت عينيها ..
وتمتمت : يا حبيبي !..
ونزلت كلمة « يا حبيبي .. » في أذنيه كأنة الناي .
نزلت تلك الكلمـــة في أذن الوزير كهمسات النسيم العليل ، فشدت أصابعه أصابعها وهمس : يا حياة عصام .
وتشابكت أصابع اليدين على وله وشوق وحب وهوى وحنين ..
وأقبل الطبيب يدعو صاحب المعالي الى الخروج من الغرفة
– تفضل معي بالخروج من الغرفة يا صاحب المعالي ، فالمريضة الحسناء بحاجة الى الراحة والهدوء .
وسلخ عصام يده عن يد نجاة .
وخرج وهو مطمئن البال : الحمد لله ، ثم الحمد لله . فقد وهبه الله أكثر مما يستحق ، أعاد اليه نجاة ، بعد الغياب الطويل ، وأنقذ حياتها من الموت .
وأقامت نجاة الوردي في المستشفى عشرين يوماً كان الوزير عصام يزورها كل يوم .
ولم تكن خلالها صديقتها الراقصة نوادر تفارقهـــا لحظة واحدة .
وروت نوادر لصاحب المعالي قصة غياب نجاة .



وأخبرته ان نجاة ضحت بقلبها وبسعادتها لتشتري له براءة الحقوق .

أخبرته الراقصة نوادر كل شيء .

فازداد عصام سلوم تعلقاً بحبيبته نجاة ، وتدلهاً بهواها واحتراماً لها . وقد لمس هول التضحية الجسيمة التي أقدمت عليها نجاة من أجله .

وعزم على أن يكفر عن خطيئته ، وأن يعوّض على حبيبته نجاة كل ما فاتها من السعادة والهناء ، وأن يرد لها الجميل

عزم صاحب المعالي على الزواج من نجاة ، من الراقصة الحسناء مواكب .

ويوم خرجت نجاة من المستشفى أمسك عصام سلوم

جيدها ليسير بها الى داره هامساً في اذنها : هذه الدار هي دارك يا نجاة . هنا ستحلين، وسنعيش معاً العمر كله ، ونستعيد سهراتنا مع نجمة الحب الزاهية الزاهرة السمحاء .

وعادت السعادة الهانئة تغمر قلب عصام ونجاة ..

وكلما جلسا على شرفة الدار الأنيقة الفخمة تلقي نجاة الوردي برأسها الجميل على صدر حبيبها الوزير وتهمس : كنت أعيش في شقاء دائم عميق وأنا بعيدة عنك يا عصام كنت أعيش وحدي . وحدي مع الليل . لا تسلني كم تعذبت ، وكم بكيت وكم شقيت ، بل سل هذه النجمة ، سل نجمة الحب كم تعذبت وبكت وتألمت نجاة يا حبيبي

ويضمها عصام الى صدره هامساً : لن تظلي وحدك بعد اليوم يا نجاة . سنعيش معاً مع الليل والفجر والصباح والنهار . اياماً قليلة ، وتستقيل الوزارة ، وأنهي كل اعمالي وأشغالي ويتم زفافنا الميمون .

وينتشي الحبيبان ..

ويضيعان في يم رحيب ، فسيح ، عميق ، من الهوى والحب والشوق والحنين على آمال وارفة وأحلام مخضلة الجناح

•

انتشر خبر غرام الوزير عصام سلوم بالراقصة الحسناء مواكب ، وراحت الصحف تغمز من قناة الوزير ، وتنشر

أخبار العلاقة الغرامية العنيفة التي تربط بين قلب الوزير وقلب الراقصة الجميلة ..

ووصلت قصة غرام الوزير سلوم بالراقصة مواكب إلى خطيبته سعاد الصواف ، فلم تأبه للأمر .

بل هي هزت كتفيها ، وقلبت شفتيها هامسة : هـو حرّ .. فليفعل ما يشاء .

غير ان والد الخطيبة ، صاحب المصرف الكبير ، هاله النبأ ، وقد أدرك ان الصهر العزيز سيطير من يديه ..

وتطير معه الوجاهة التي كان يحلم بها .

فوثب الى عصام سلوم معاتباً ، طالباً اليـه أن يضع حداً لتلك الشائعات ، ويخرس الألسن الـثرثارة ، ويقطع الطريق على تهكمات الصحف وغمزاتها ، بالزواج السريع من كريمته سعاد .

وخيل لصاحب المصرف الكبير ان صاحب المعالي سينفي تلك الشائعات وسيجيبه الى طلبه ، ويسرع في تحديد موعد العرس .

الا انه ذعر وهو يسمع الوزير يجيبه بقوله : ما سمعت لم يكن مجرد شائعات يا سيدي .. انه الحقيقة ، فأنا أحب الفتاة وسأتزوج منها ، ويؤسفني أن أعلن لك فسخ خطبتي من الآنسة سعاد متمنياً لها كل سعادة وهناء وتوفيق .

واشتد الذعر بصاحب المصرف الكبير وتمتم : عليك أن تفكر بالأمر ملياً يا صاحب المعالي . إن مقامك الرفيع يحول

بينك وبين هذه الراقصة ، والمستقبل الزاهر الزاهي السعيد يهيب بك الى الانقطاع عن هذه الفتاة وابعادها عن دارك .

فاستوى الوزير عصام سلوم في جلسته ليقول : هذه الفتاة التي تدعوني الى ابعادها عن داري صاحبة فضل علي ، ولها جميل في عنقي هيهات أن أستطيع ايفاءه . فهي التي دفعتني الى المسير في طريق السعادة والهناء . هدمت سعادتها لتبني سعادتي أنا على انقاض سعادتها هي !

فتساءل أسعد بك : كيف ؟

وروى الوزير لصاحب المصرف قصته مع نجـــاة ، وأطلعه على كل شيء.وشرح له التضحية الجسيمة التي أقدمت عليها نجاة من أجله .

وتمتم أسعد بك : سنعيد لها الآلاف العشرة التي جادت بها عليك مع الفائدة ..

انه ليتكلم بلغة أصحاب المصارف..

وطفت على شفتي عصام سلوم ابتسامة هزء وسخرية صفراء وهمس : نجاة الوردي لم تهبني عشرة آلاف ليرة فحسب يا سيدي . لقد وهبتني سعادتها . تخلت عن سعادتها من أجلي. وعلي أن أعيد اليها تلك السعادة .

وأدرك صاحب المصرف الكبير انه حيال عاشق يتكلم بقلبه ، لا بلسانه ، بعاطفته لا بعقله .

وأيقن انه عاجز عن اقناعه ، وصرفه عن الزواج بالراقصة مواكب فهمس بكل مكر وخبث ودهاء : ليكن ما تريد

يا صاحب المعالي . فأنت حر في اختيار زوجتك ، إلا انني أخشى أن تسيء الاختيار .

وودعه ، وقفل عائداً إلى مصرفه ..

ودخل إلى مكتبه الفخم في المصرف ، ليرفع سماعة الهاتف ويتصل بدار الوزير ، وقد أدرك ان صاحب المعالي ما زال في ديوانه في الوزارة ، وان الراقصة لا تزال في داره

ورد أحد الخدم في دار الوزير فقال أسعد بك : أريد التحدث إلى الآنسة نجاة .

وتمتم الخـــادم : من تراه المتكلم ؟ ومن هو الذي يريد التحدث إلى الآنسة نجاة ؟

قال أسعد بك : قل لها صديق ..

برهة وجيزة وسمع صاحب المصرف الكبير صوت نجـاة هامساً : آلو .. من ؟

وتمتم : هنا أسعد الصواف ..

قالت : نعم ؟ بماذا يأمر سيدي ؟

قال : أريد أن تشرفيني بزيارة أيتها الآنسة نجاة ، أنا صاحب المصرف الكبير ، وأريد التحدث اليك في أمر خطر وخطير ..

قالت بدهشة واستغراب : ما هو هذا الأمر الخطر والخطير ؟ هل أستطيع أن أعلم ما هو ..

قال : انه ليتعلق بصديقك الوزير عصام سلوم .!

قالت : أرجو أن تعفيني يا سيدي من هذه الزيارة ..

فرد بإلحاح : قلت لك ان الأمر خطر وخطير فأرجو أن تحضري فوراً إلى المصرف ، إنني بانتظارك ..

قالت بإصرار وحزم : لا ، لن أحضر .

وهمت بإلقاء سماعة الهاتف من يدهـــا إلا أن صوت أسعد بك نزل في مسمعها هاتفاً : إذا لم تحضري الآن فوراً إلى مكتبي في المصرف سيكون عصام في خطر

وذعرت ..

وهمست بعد تردد قصير : انني قادمة .

وهرولت نجاة مسرعة إلى المصرف الكبير ، وفي رأسها يدور ألف سؤال وسؤال : ترى ما هو هـذا الخطر الذي يهدد عصاماً ؟ ولماذا يدعوها صاحب المصرف الكبير لزيارته على جناح السرعة والعجل ؟

ووصلت إلى المصرف الكبير فإذا بأحد الموظفين يستقبلها بالترحيب ويقودها تواً إلى مكتب صاحب المصرف ..

فكأنه على علم بحضورها ..

ورحب أسعد بك شديد الترحيب بالراقصة الحسناء .

وقدم لها لفافة فاخرة اعتذرت عن قبولها،وهمست :

– بماذا يأمر سيدي ؟

قال : أتتناولين فنجان قهوة ؟

قالت : لا .. شكراً ، أرجو أن تتكرم يا سيدي بجلاء السبب الذي من أجله دعوتني اليك .

فأشعل أسعد بك لفافته ليقول : أيتها الآنسة نجاة أريد

أن أتحدث اليك في أمر خطر يتعلق بصديقك الوزير عصام سلوم .

قالت : إنني مصغية اليك .

قال :«لقد أخبرني صاحب المعالي انك أقدمت مرة على على تضحية كبيرة من أجله ، من أجل سعادته ، من أجـل مستقبله»فلزمت الصمت ولم تفه بحرف .

وتابع أسعد بك كلامه قائلاً : وأنت الآن مدعوة لتقديم تضحية ثانية لعلها أهم وأثمن وأغلى من تضحيتك الأولى .

فارتسم الخوف في عيني نجاة ، وصاحب المصرف الكبير يحدثها عن التضحية .

وتابع أسعد بك حديثه قال : في المرة الأولى ضحيت من أجل سعادة عصام ، أما هذه المرة فإنك ستضحين من أجل عصام ومن أجل فتاة طاهرة كريمة .

فهمست : لم أفهم .

قال : سأوضح لك الأمر ، كان عصام قد خطب ابنتي سعاد ، وكان ينوي الزواج منها خلال أشهر قليلة ، غير انه وقد رآك تعودين اليه ، بعد غيابك الطويل ، عاوده الحنين اليك وفسخ خطوبته . ان ابنتي تتعذب ،إنها تتألم ، هي ستموت إذا لم يعد خطيبها اليها ، إن حياة ابنتي في يدك يا سيدتي ..

فذعرت نجاة لما يقول صاحب المصرف . هي لم تكن تعلم ان عصاماً خطب فتاة ويريد الزواج منها .

إلا انها استطاعت أن تسيطر على أعصابها وان تتسلح

بالشجاعة وتقول : ما هو ذنبي أنا يا سيدي ؟

قال : الذنب ليس ذنبك ، ولا هو ذنب عصام ، ولا ذنب ابنتي . إنه ذنب الأقدار . إلا اننا نحن البشر علينا أن نصلح دائماً أخطاء الأقدار .

قالت : ماذا تطلب مني ؟

قال : أطلب منك أن تتخلي عن عصام وتبتعدي عنه . !

فهمست : وهب انني تخليت عنه ، أتراه يتخلى هو عني ؟

قال : ابتعدي عنه ، واتركي الأمر إلي ..

قالت : تريد يا سيدي أن تشتري سعادة ابنتك بتعاستي وشقائي ؟ لا .. لن ابتعد عن عصام.ساظل قربه . يكفيني ما لقيت من شقاء وعذاب وألم ودموع في بعادي عنه طيلة عشر سنوات .

فوقف أسعد بك ، واقترب منها ليمسك بيدها المرتجفة البارده قائلا : اسمعي يا ابنتي . أنت ضحيت منذ عشر سنوات بسعادتك لتشتري السعادة لعصام ؟ أليس كذلك ؟

فأومأت برأسها مشيرة بالإيجاب ..

وتابع أسعد الصواف كلامه قائلا : وستهدمين الآن كل ما بنيت لعصام من سعادة . ستقضين عليه وعلى مستقبله ، وتكونين سبب شقائه .

فتساءلت : أنا ؟

قال : أجل أنت . إن عصام سلوم اليوم ، غير عصام سلوم الذي كان في معهد الحقوق منذ عشر سنوات ، انه اليوم

الوزير عصام سلوم وهو مرشح لتبوؤ أعلى مقام في البلاد . بقاؤك قربه سيقطع عليه الطريق إلى ما يصبو ويأمل في الحياة

قالت : أنا سأتزوج من عصام .

فهدر : هل فكرت بالوهدة العميقة الغور الذي تفصل بينك وبينـــه ؟ تصوري ان الوزير عصام سلوم هو زوج الراقصة مواكب .

فانفجرت نجاة هاتفة بثورة لاهبة : ما بها الراقصة ؟ لماذا تمتهنونها ؟ لماذا تحتقرونها ؟ كم هناك من الراقصات أبعد شرفاً وأعمق نبلا من بنات مجتمعكم المزيف .

فأدرك انه آلمها وأساء اليها

ورأى أن يعمد إلى إصلاح هفوته . قال : أنا ما قصدت إهانتك يا ابنتي ، بل أردت ايضاح ما خفي عنك . ان عصاماً مرشح للوصول إلى أبعد من منصب الوزارة . وهو بحاجة الى المال الوفير ، فاذا ما أصبح صهري سيكون مصرفي كله بما فيه من أموال طائلة بين يديه . زواجك منه سيضيع عليه الفرصة السانحة ، سيشقيه ويشقي ابنتي ، وربما أشقاك أنت أيضاً

فصمتت نجاة على وجل وخوف ووجوم .

وراحت تفكر : قد يكون هذا الرجل على حق ..

وعاد أسعد الصواف الى الكلام ليقول : ثم ان المجتمع لا يرحم يا ابنتي . انه مجتمع قاس ظالم ، هو لن يغفر للوزير عصام سلوم زواجه من راقصة ، ان زواجك من عصام يسيء

اليه ، وأنت لا ترضين بالإساءة الى من تحبين .

فأثار فيها مكامن الألم والعذاب .

ولم يكتفِ بما غرز في قلبها من حراب بل هو فتح درجاً وأخرج منه بعض الصحف ، دفع بها الى نجـاة هادراً : تفضلي واقرئي ما تكتب الصحف عنك وعنه ، قبل ان تصبحي زوجته وقبل أن يصبح زوجك ، فماذا عساها تكتب هذه الصحف يوم تزفين اليه ؟

وتناولت نجاة الصحف وقرأت بعض العناوين : « وزير الراقصات » « مواكب .. راقصـة الوزارة .. » « الوزارة الراقصة » .. « مواكب الرقص في الوزارة » ..

وألقت بالصحف من يدها وأغمضت عينيها ..

وبدأت الدموع تنهمر من العينين النجلاوين ، المغمضتين

وأدرك صاحب المصرف الكبير ان خطتـه سائرة في طريق التنفيذ ، فاطمئن كل الاطمئنان .

وتناول دفتر « الشيكات » من درجه ليحرر « شيكاً » باسم الآنسة نجاة الوردي بقيمة عشرين الف ليرة

ودفع « بالشيك » اليها قائلا : تفضلي يا ابنتي .

فتساءلت نجاة ، وهي تمسح دموعها : ما هذا يا سيدي؟

قال : أنت أعطيت عصاماً عشرة آلاف ليره لبنانية ، منذ عشر سنوات . اني أعيد اليك المبلغ مع فائدته .

فارتسمت على شفتي نجاة ابتسامة ألم وهزء واشفاق وهمست : لا يا سيدي . أنا لم أدفع بالآلاف العشرة الى عصام لأستردها منه ، او منك مع فائدتها .. احتفظ بمالك لنفسك . واطمئن .. أنا سأبتعد عن عصام ، ليس من أجلك أنت ، ولا من أجل ابنتك بل من أجله هو .. من أجله هو وحده ، من أجل سمعته ، واسمه ، وكرامته ومستقبله

ونهضت .. وأسرعت بالمسير دون أن تلتفت اليه ودون أن تمد « للشك » يداً .

وعادت الى الدار ، الى دار عصام ، لتجمع ثيابها وتزم حقيبتها والدموع تنهمر على خديها غزيرة حمراء...

وتذكرت ..

وتذكرت يوم جمعت ثيابها وزمت حقائبها منذ عشر سنوات في دارها في حي رأس النبع ..

التاريخ يعيد نفسه

والمسرحية هي هي ..

والمأساة نفسها ..

بقيت الرسالة .. ويسدل الستار

وجلست تخط لعصام رسالة مقتضبة

« عزيزي الوزير !..

أنا سأغادر لبنان الساعة ، لأعود الى عملي ، الى فني ، الى جمهور المعجبين الذي اشتقت اليه واشتاق الي . الفن داء

يا صاحب المعالي ، انه ادمان ، ويبدو انني لم استطع الشفاء من دائي وما استطعت التخلص من هذا الادمان .. أشكرك على ما ابديت نحوي من عطف واهتام وأدعو لك بالتوفيق ، وأسلم للمخاصة ..

مواكب ،

وطوت الرسالة ، ووضعتها على المنضدة في غرفة عصام
ولم تضع مع الرسالة عشرة آلاف ليرة هذه المرة . . .
وحملت حقيبتها ..
وخرجت من الدار والدموع تتدحرج على وجنتيها النديتين
وعندما عاد عصام في المساء الى الدار فوجىء بغياب نجاة
وسأل الخادم عنها فأجاب : اتصل بها صديق هاتفياً فخرجت من الدار لتعود بعد قليل فتجمع ثيابها وتزم حقيبتها وتحملها وتخرج دون أن تعود
ووجم عصام ..
ودخل الى غرفته ليجد الرسالة على المنضدة بانتظاره
ومد يداً مرتجفة اليها ، وفضها ليقرأ ما كتبته نجاة
وتحول الوجوم في نفسه الى ذعر
وهمس في سره : ماذا تعني هذه الرسالة ؟
ولماذا تعود نجاة الى الابتعاد ؟
ولماذا تريد لقلبي العذاب ؟
ماذا فعلت لها كي تعذبني هذا العذاب الأليم ؟

وجلس على السرير ..

وألقى برأسه الواهي بين يديه ، وانغمس في تفكير بعيد وألم سحيق وعذاب مرير عميق .

***

شهر مضى على ابتعاد نجاة عن حبيبها عصام سلوم ، وعصام ينغمس في الألم والعذاب ، ويعتذر عن تلبية الدعوات، والحفلات لينزوي في داره على ألم وشوق وعذاب وحنين

فالصدمة كانت عنيفة على قلب صاحب المعالي

وفراق حبيبته نجاة هدّ قواه وأثخن قلبه بالجراح

وكان ثمة بصيص من امل واهٍ ضئيل ينير الظلام في قلب عصام

فهو يأمل أن تعود اليه نجاة

قلبه ينبئه بأن نجاة ستعود ، وبأنه سيلتقي بها

ولكن أين ؟. ومتى ؟.

ليس يدري ..

وبعد شهر ، شهر واحد من اختفاء نجاة رن جرس الهاتف في مكتب الوزير عصام سلوم

ورفع السماعة الى أذنه ، فإذا بصوت « السكرتيرة » ينزل في مسمعه ، « صديقك طبيب القلب في مستشفى الجامعة

الأميركية يريد التحدث اليك يا صاحب المعالي »

وتعالت نبضات قلب الوزير

وتمتم : سأتحدث اليه ..

– تفضل بالتحدث يا معالي الوزير

وهمس الوزير عصام عبر الهاتف : ألو !. أهلا دكتور؟ بماذا تأمر ؟

ورد الطبيب : صديقتك هنا عندنا في المستشفى ، جاءت بها صديقتها نوادر منذ الصباح

– من ؟ نجاة ؟.

– أجل نجاة ..

– ما بها يا دكتور ؟

وهمس الطبيب : لقد عاودتها النوبة القلبية يا معالي الوزير . أرجو أن تحضر لزيارتها ، لعل قربك منها يخفف من وطأة النوبة العنيفة .

قال عصام ، بقلق وارتباك : انني قادم

فرد الطبيب : اسرع ..

كلمة واحدة : « اسرع .. »

انها لتحمل لصاحب المعـــالي ألف معنى ومعنى .. « اسرع » ؟. إذن نجاة في خطر

واسرع صاحب المعالي الى مستشفى الجامعة الأميركية واتجه توآ الى غرفة نجاة ، فإذا بالراقصة نوادر جالسة أمام الغرفة والدموع تنهمر على وجنتيها .

– ما بها يا نوادر ؟ كيف حالها الآن ؟

وهمست نوادر : لقد عاودتها النوبة يا معالي الوزير . منذ أن غادرت دارك ، منذ شهر ، وهي تتألم وتتعذب وتبكي وتشقى وتسير مسرعة الخطى نحو الموت

– ألم تسافر ؟

– تسافر ؟ الى اين تريدها أن تسافر يا معالي الوزير ؟ كانت نجاة عندي ، في داري ، في ضواحي بيروت

– ولماذا هجرتني ؟ لماذا غادرت داري ؟

فهزت الراقصة نوادر رأسها بأسف وأسى وألم وهمست: سل«عمك» والد خطيبتك . صاحب المصرف الكبير يخبرك كل شيء . انه مجرم لقد دفعها بيديه الأثيمتين الى هنا . ومن يدري الى أين ستصل من هنا .

وانقشعت عن عيني عصام سلوم الغمامة الدكناء وأدرك كل شيء ..

وكان صاحب المعالي يحاول ، وهو يتحدث الى الراقصة نوادر ، اقتحام الغرفة ، فيمنعه أحد الأطباء هامساً : مهلا يا معالي الوزير ريثما يخرج الأطباء من الغرفة

– أريد أن أراها ..

– ستراها يا معالي الوزير .. مهلا مهلا

ويعود عصام الى الحديث مع الراقصة نوادر : ماذا قال لها أسعد الصواف يا نوادر ؟

قال لها أشياء كثيرة ، دعاها للابتعاد عنك لئلا تسيء

الى سمعتك والى اسمك والى مستقبلك

– وماذا بعد ؟.

ولم تجب نوادر بل أشارت بيدها الى الباب القريب: انظر .. لقد خرج الأطباء من غرفتها يا صاحب المعالى

ووثب عصام سلوم الى الأطباء يسألهم : كيف حالها ؟

فتأبط صديقه طبيب القلب ذراعه.وهمس فليعوضنا الله سلامتك يا صاحب المعالي .

وصرخ عصام : ماتت ؟

فتمتم الطبيب : كانت الكلمة الأخيرة التي لفظتها شفتاها اسمك يا معالي الوزير ، وقد أبت أن تتخلى عن صورتك حتى وهي تحتضر ، الصورة ما زالت في يدها

ووثب عصام سلوم الى الغرفة البيضاء ليشاهد حبيبته نجاة نجاة ؟.

لا ، بل ليشاهد جثمان نجاة ..

وكان جثمان نجاة ممدداً في السرير ، ويداها تنطويان على صورته ، على تلك الصورة التي حملتها معها من دارها في حي رأس النبع منذ عشر سنوات

وانكب عصام سلوم على صدر نجاة ..

وأجهش بالبكاء ..

*

وأبى الوزير عصام سلوم أن يتزوج
فهو لنجاة ابداً ،
حتى بعد موتها سيظل وفياً مخلصاً اميناً لها
عروسه هي نجاة ،
لن يبدلها بعروس أخرى ، ولن يكون لسواها
وكلما أرخى الليل سدله السوداء على بيروت يخرج عصام سلوم الى شرفة داره الفخمة ، وينظر الى الأفق البعيد البعيد الى النجوم ..
الى نجمة الحب ، نجمة الزهراء ليذكر حبيبته نجاة
وينساب صوت نجاة في مسمعه آتياً من وراء الشفق ، من مجاهل الفضاء ، من السماء :
« يلوح لي ان هذه النجمة ، نجمة الحب ، تخترق قلوبنا بنورها ، وتقف على اسرارنا ، فاذا ما وقف النوى بيننا يوماً اذا ما فرق الدهر بيننا يا عصام ، فأبعدك عني أو أبعدني عنك ، اذا غبت يوماً عن عينيك يا حبيبي ، سل هذه النجمة عني فهي تعرف اين أكون ، وماذا حل بي .. »
وتنساب الدموع غزيره من عيني عصام سلوم وهو يذكر كلمات نجاة الحبيبة .
ويحدق بالنجمة الزاهية
ويهمس : أيتها النجمة اللامعة البيضاء ، يا نجمة الحب !.
أين هي نجاة ؟.

— تمت —

مؤلفات الاستاذ بيار روفايل
القصص العاطفية

الأرض العذراء
الأمل الصريع
انا خاطئة
بين نارين
حسناء بغداد
خبز ودمع
خذ قلبي ودعني
دموع الأرز ٢/١
دموع العذارى
دموع لا تجف
زنبقة في الوحول
سرّ الراهبة
صرخة الاستقلال
صقر الصحراء
ضاع عمري
طريق الدموع
ظلمتني يا قلب
غادة دمشق
في مهبّ الرياح
القلب الأخضر
لا تلمني
لن يعود

ماذا فعلت بقلبي

معقل النسور ٢/١

ملائكة في الجحيم

من اجل عينيك

نار في الجنوب

هل تذكرين

وحدي مع الليل

تطلب من دار الجيل

